من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الكتاب الرابع

أسئلة سئل عنها السهروردي

وأجوبته عليها

وجمل من كلامه ووصاياه

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

للشَّيخِ السُّهرَورديِّ مكانةٌ كبيرةٌ في التَّصوُّفِ ومعرفةِ علومِ القومِ ، وقدْ أهَّلَتْهُ هٰذه المنزلةُ لأنْ يكونَ كلامُهُ مادَّةً يَحتفي بها أهلُ التَّصوُّفِ في زمانِهِ وبعدَهُ ، حتَّىٰ إنَّ منهُم مَنْ كانَ يَتخيَّرُ الفوائدَ مِنْ كُتُبِهِ المُختلِفةِ ، ويُفرِدُها في رسائلَ مفردةٍ ، تتفاوتُ في حجمِها كِبَراً وصِغَراً ، ومِنْ هٰذه الفوائدِ ما أمكَنَ الوقوفُ علىٰ مَصدرِها في كُتُبِهِ المطبوعةِ ، وبعضُها الآخَرُ يُظَنُّ أنَّهُ مِنْ كُتُبِهِ الَّتي سَقَطَتْ مِنْ يدِ الدَّهرِ .

وهٰذا الكتابُ الذي بينَ أيدينا مِنْ بابةِ الفوائدِ المُنتقاةِ ؛ فهو أجوبةٌ عن سؤالاتٍ وُجِّهَتْ للسُّهروردِيِّ ، ووصايا جامعةٌ أوصىٰ بها بعضَ أصحابِه مِنَ الصُّوفيَّةِ ، ومجموعاتٌ مِنْ كلامِهِ .

وقدْ وَرَدَت هٰذه الفوائدُ مُقسَّمةً علىٰ قِسمَين :

فالقسمُ الأوَّلُ : جاءَ في صورةِ أسئلةٍ وُجِّهَتْ إلى السُّهروردِيِّ مِنْ قِبَلِ بعضِ علماءِ خُراسانَ ، تدورُ حولَ دقائقِ التصوُّفِ وآدابِهِ ؛ كالخَلوةِ وآدابِها ، ولُبسِ الخِرقةِ وأصلِها مِنَ السُّنَّةِ ، وجملةٍ مِنْ آدابِ المريدِ ، وبلغَ عددُها ثمانيةَ عَشَرَ سؤالاً ، وقدْ جاءَتِ الإجاباتُ مختصرةً ، ولٰكنَّها مفيدةٌ شافيةٌ .

ويُفهَمُ مِنْ صريحِ كلامِ السُّهروردِيِّ في صدرِ الجوابِ أنَّ الأسئلةَ تَزيدُ علىٰ ثمانيةَ عَشَرَ سؤالاً ، إلَّا أنَّهُ أجابَ عن بعضِها فحَسبُ[1] .

---

(١) وينظر « أبو حفص عمر السهروردي ؛ حياته وتصوفه » (ص ٧٣) .

وأمَّا القسمُ الثاني فهو جُمَلٌ مُنتقاةٌ مِنْ كلامِهِ وفوائدِهِ ، تدورُ حولَ التَّصوُّفِ وآدابِ الطريقِ وأحوالِ القلوبِ ، والزُّهدِ ومراتبِهِ وغيرِها ، وبعضُها في تفسيرِ بعضِ الآياتِ الكريمةِ ، وشرحِ بعضِ الأحاديثِ النبويةِ ، عِلاوةً علىٰ بعضِ وصايا أَوصىٰ بها أصحابَه الصوفيةَ ؛ كالوصيَّةِ بملازمةِ تقوى اللهِ تعالىٰ ، والحَذَرِ مِنَ العُجْبِ ورؤيةِ العملِ ، والحثِّ علىٰ ملازمةِ الزهدِ ، وتحقيقِ العبوديةِ .

وقدْ لُوحِظَ أنَّ الفوائدَ المذكورةَ منها ما هوَ مذكورٌ بنصِّهِ أو بمعناهُ في كُتُبِهِ الأخرىٰ ؛ فلا نَدري هلْ كانَتْ كلُّ فائدةٍ مُستقِلَّةً في رسالةٍ ، ثمَّ جَمَعَها النُّسَّاخُ في كتابٍ واحدٍ ؟ أو أنَّها كانَتْ مجموعةً في كتابٍ ثمَّ فرَّقَها المُعتَنُونَ بعلومِ السُّهروردِيِّ في رسائلَ مفردةٍ ؟ والأمرُ على الاحتمالِ .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق

نسخةٌ كُتِبَتْ في القرنِ الثّامنِ الهجريّ بقلمِ نسخِيّ نَفيسٍ بمعهدِ المخطوطاتِ العربيّةِ بالقاهرةِ ، برقم (٢٩ تصوُّف) مصورة عن مخطوطة مكتبةِ أمانة بتركيا ، برقم (١٥/١٧٦٢) ، عدد أوراقها (٣٥) من (١٦٣ ب) إلىٰ (١٩٧ ب) ومقاس أوراقها (١٣.٥ × ١٨سم) .

وقدْ تضمَّنَتْ هٰذه الورقاتُ التي عنونَتْ في التصوير بـ : « أسئلةٌ سُئِلَ عنها السُّهرَوَرْدِيُّ شهابُ الدِّينِ وأجوبتُهُ عليها وجُملٌ مِنْ كلَامِهِ ووصاياهُ » بالإضافةِ إلىٰ هٰذه الأسئلة . . ثلاثَ رسائلَ للسُّهرَوَرْدِيّ استخرجتُها وأضفتُها إلى الرَّسائلِ المفردةِ ؛ وهي : رسالةُ السَّيرِ والطَّيرِ ، الورقتان (١٦٧ ، ١٦٨) ، وأخرىٰ في الإرادةِ إلى الشَّيخِ نصرِ المزيَّنِ (١٧١ب ـ ١٧٨ ب) ، وثالثةٌ إلىٰ تلميذِه عليّ الموقانيّ (١٧٨ب ـ ١٧٩ب) .

وتوجدُ منه خمسُ نُسخٍ أخرىٰ في مكتباتِ العالمِ عِلاوةً علىٰ مُصوَّرةِ مَعهدِ المخطوطاتِ ؛ وهي كما يلي :

سوريا :

المكتبةُ الظَّاهريَّةُ : برقم (٤٦٥٣) ، (الأوراق ٢٥ ـ ٣١) بدمشق .

إيران :

مكتبةُ مدرسة عالي سبهسالار ، برقم (١/٢٠٩) (٣) بطهران .

ألمانيا :

١ ـ مكتبةُ الدَّولةِ ببرلين : برقمي (٣٤٧٦) ، (٣٦٩١) .

٢ ـ مكتبةُ جامعةِ توبنغن : برقم (٧/٨٩) الأوراق (٧٦ب ـ ٧٩ب) .

وذكرته « خزانةُ التُّراثِ » بأسماء عِدَّة : « الأجوبةُ السُّهروردِيَّةُ » ، و« من كلامِ السُّهروردِيِّ » ، و« جوابُ أسئلةٍ لبعضِ أئمَّةِ خراسان » .

وذكره « المعجمُ » (٢٢٩٥/٣) باسم : « الأجوبةُ عن أسئلةِ علماءِ خُراسانَ ـ في التَّصوفِ » .

نماذج من صور المخطوط

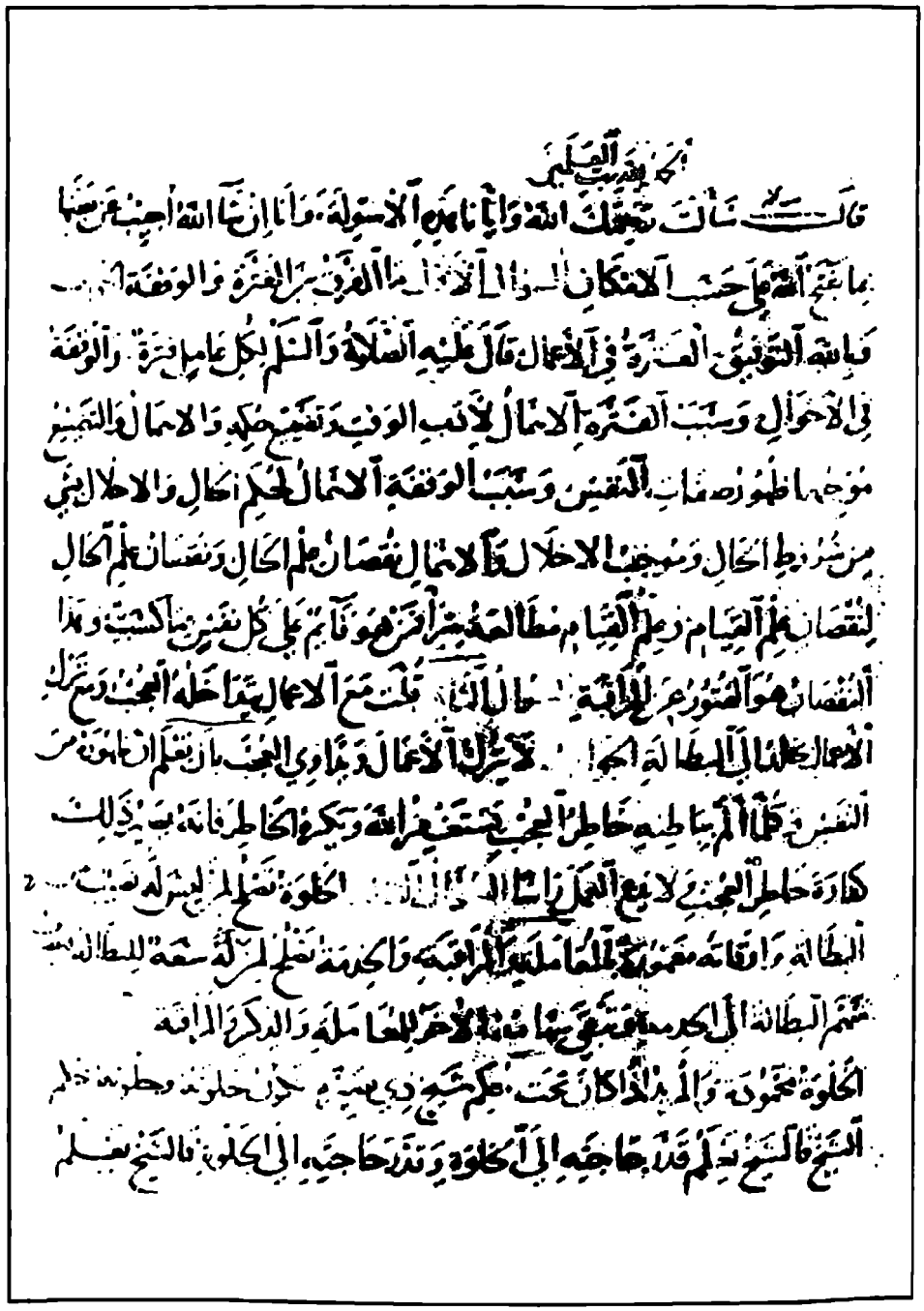

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية القاهرة

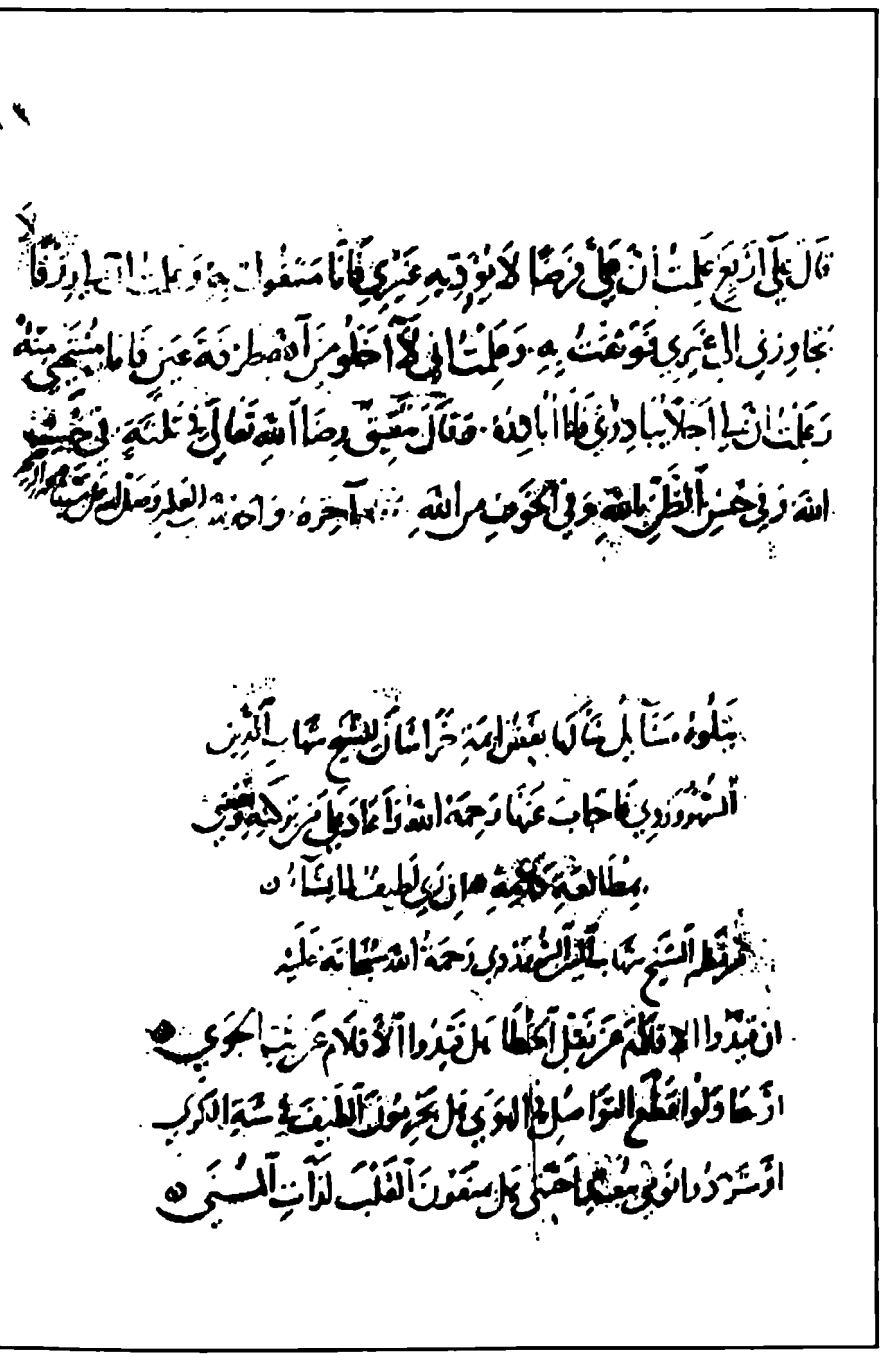

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية القاهرة

أسئلة سُئل عنها السهروردي

وأجوبته عليها

وجمل من كلامه ووصاياه (١)

---

(١) صدَّرها النَّاسخُ بقوله : مسائلُ سألَها بعضُ أئمَّةِ خُراسانَ للشَّيخِ شِهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، فأجابَ عنها رحِمه اللهُ ، وأعادَ عليَّ مِن بَرَكتِه ، ونَفَعَني بمُطالَعةِ كلامِه ، إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ .

من نَظمِ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ رحمةُ اللهِ سبحانَه عليه : [من الكامل]

إن قيَّدوا الأقدامَ عن نقلِ الخُطا ... هل قيَّدوا الأقلامَ عن بثِّ الجوى

أو حاولوا قَطْعَ التَّواصُلِ في الهوَى ... هل يَحرمونَ الطَّيفَ في سِنَةِ الكَرى

أو شرَّدوا نَومي بِبُعدِ أحِبَّتي ... هل يَمنَعونَ القلبَ لذَّاتِ المُنَى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، قال : سألتَ رحِمَك اللهُ وإيَّانا هٰذه الأسئلةَ ، وأنا إن شاءَ اللهُ أُجِيبُ عن بَعضِها بما يَفتَحُ اللهُ عليَّ حَسَبَ الإمكانِ :

السُّؤالُ الأوَّلُ : ما الفَرقُ بين الفَترةِ والوَقفَةِ ؟

الجوابُ ـ وباللهِ التَّوفيقِ ـ : الفَترةُ في الأعمالِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « لِكُلِّ عَامِلٍ فَتْرَةٌ »[1]

والوَقفةُ في الأحوالِ[2] .

وسببُ الفَترةِ : الإهمالُ لأدبِ الوقتِ وتَضييعُ حُكمِهِ ، والإهمالُ والتَّضييعُ مُوجِبُهُما ظهورُ صِفاتِ النَّفسِ .

وسببُ الوقفَةِ : الإهمالُ لحكمِ الحالِ ، والإخلالُ بشيءٍ مِنْ شُروطِ الحالِ ؛ ومُوجِبُ الإخلالِ والإهمالِ : نُقصانُ علمِ الحالِ ، ونُقصانُ علمِ الحالِ لنُقصانِ علمِ القِيامِ ، وعلمُ القِيامِ مطالعةُ سِرِّ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[3] ، وهٰذا النُّقصانُ هو الفُتورُ عنِ المراقَبةِ .

السُّؤالُ الثَّاني : قلتَ : مع الأعمالِ يَتَداخَلُهُ العُجْبُ ، ومع تركِ الأعمالِ يَخلُدُ إلى البَطالَةِ ؟

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٦٩٥٨) ، والطحاوي في « بيان مشكل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم » (١٢٣٦) ، وابن حبان في « الصحيح » (١١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤٣٩/١٣) (١٤٢٩١) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ولفظ الطبراني : « لِكُلِّ عَامِلٍ فَتْرَةٌ ، ولِكُلِّ فَتْرَةٍ شِرَّةٌ ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي . . فَقَدْ أَفْلَحَ » ، وألفاظهم متقاربة .

(٢) قال الإمامُ القُشيريُّ في « الرِّسالةِ » (ص ٧٧٥) : (والفرقُ بين الفَترةِ والوقفةِ : أنَّ الفترةَ رجوعٌ عنِ الإرادةِ وخروجٌ منها ، والوقفةُ : سكونٌ عنِ السَّيرِ باستحلاءِ حالاتِ الكسلِ) ، فصاحبُ الفترةِ يُرجى له الرُّجوعُ إلى ما كان عليه ، بخلافِ صاحبِ الوَقفةِ . انظر « إحكامَ الدِّلالةِ » لزكريا الأنصاري (٢١١/٤) .

(٣) سورة الرعد : (٣٣) .

الجوابُ : لا يَتْرُكُ الأعمالَ ، ويُداوِي العُجْبَ بأنْ يَعلَمَ أنَّ ظهورَهُ مِنَ النَّفسِ .

وكلَّما ألمَّ بباطنِهِ خاطرُ العُجْبِ . . يَستَغفِرُ اللهَ ويكرهُ الخاطرَ ؛ فإنَّهُ يصيرُ ذلكَ كفَّارةَ خاطرِ العُجْبِ ، ولا يَدَعُ العَمَلَ رأساً .

السُّؤالُ الثَّالثُ[1] :

الخَلْوةُ : تَصلُحُ لمَنْ ليسَ لهُ نَصِيبٌ مِنَ البَطالَةِ ، وأوقاتُهُ مَغْمورةٌ بالمعامَلَةِ والمراقَبةِ .

والخِدمةُ : تَصلُحُ لمَنْ لهُ سَعةٌ للبَطالَةِ ؛ فَيَصرِفُ سَهمَ البَطالَةِ إلى الخِدمةِ ، وتَبقَىٰ سِهامُهُ الأُخَرُ للمُعامَلةِ والذِّكرِ والمراقَبةِ .

السُّؤالُ الرَّابعُ :

الخَلْوَةُ مَحمُودةٌ ، والمريدُ إذا كانَ تحتَ حُكمِ شيخٍ ذِي بَصِيرةٍ . . تكونُ جَلْوتُهُ وخَلْوَتُهُ بحكمِ الشَّيخِ ؛ فالشَّيخُ يَعلَمُ قَدْرَ حاجَتِهِ إلى الخَلْوَةِ وقَدْرَ حاجَتِهِ إلى الجَلْوَةِ ؛ فالشَّيخُ يَعلَمُ الإستِعداداتِ ، فمِنَ المريدينَ مَنْ يُؤمِنُ بالخَلْوَةِ الدَّائمَةِ ، ومنهم مَنْ لا يَصلُحُ إلَّا للخِدمةِ ، ومنها تكونُ زِيادَتُهُ ، والأوضاعُ مُختَلِفَةٌ ، ومَعرِفَةُ تَفاوُتِها للشُّيوخِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ ؛ الَّذينَ يَتصَرَّفونَ بالحقِّ ، لا بِهوَىٰ نُفوسِهِم ، ويُريدونَ الخلقَ للهِ ؛ لا لمحبَّةِ الإستِتباعِ ، ويكونونَ أُمَناءَ اللهِ في أرضِهِ .

السُّؤالُ الخامسُ :

أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استَغنَوا بمُلَازَمةِ رسولِ اللهِ

---

(١) من السُّؤالِ الثَّالثِ إلىٰ نهايةِ السُّؤالِ الثَّامنَ عشرَ يَشرعُ في الجوابِ دون ذكرِ صيغةِ السُّؤالِ ؛ إمَّا تَصرُّفاً مِنَ النَّاسخِ أو مِنَ المصنِّفِ زوماً للإختصارِ ، وعلى الرَّغم من أنَّها إجاباتٌ دون أسئلةٍ إلَّا أنَّ الأمانةَ العلميَّةَ تحتِّمُ علينا سردَها وذِكرَها كما وردت .

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الخَلْوَةِ ، وكانَ مُلازَمتُهُم لحضرتِه والجهادِ بينَ يدَيهِ أولَىٰ مِنْ كلِّ خَلْوَةٍ .

والخَلْوةُ مُعِينَةٌ علىٰ دَفْعِ آفاتِ النُّفوسِ ، ومَعرِفَةِ الزِّيادَةِ والنُّقصانِ ، وقد يَتربَّى المريدُ بنَفَسِ الشَّيخِ وصُحبَتِه مِنْ غيرِ أن يَدخُلَ الخَلْوَةَ أو يَنْحَبِسَ في بَيتٍ مُظلِمٍ ؛ بلْ يَسري إليهِ مِنْ باطنِ الشَّيخِ ما يَستَغنِي بهِ عَنِ الخَلْوَةِ ، ولٰكنِ الخَلْوةُ تَصلُحُ لبَعضِ المريدينَ .

غيرَ أنِّي لا أحِبُّ للمُريدِ أن يَترُكَ الصَّلَاةَ جماعةً ؛ بلْ يَحضُرُ الفَرضَ ويَرجِعُ إلىٰ خَلْوَتِهِ ؛ حتَّىٰ لا تكونَ خَلْوتُهُ رَهبانِيَّةً .

وأمَّا مَن تَرَكَ الجُمُعةَ ، وزعَمَ أنَّهُ في الخَلْوَةِ ، وأنَّهُ إنْ خَرَجَ تَتشَوَّشُ جَمعِيَّتُه . . فهو ضالٌّ مُخطِئٌ ، نَعوذُ باللهِ منهُ وممَّنْ يُحَسِّنُ لهُ ذٰلكَ ؛ فهو عَينُ الضَّلَالِ .

السُّؤالُ السَّادسُ :

لُبْسُ الخِرْقَةِ لهُ أصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ؛ وذٰلكَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألبَسَ أمَّ خالدٍ خمَيصةً سَوداءَ ذاتَ عَلَمٍ[1] ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ لوازِمِ الطَّريقِ ؛ بلْ هو استِحسانُ الشُّيوخِ ، ولهُ أصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ؛ وإنَّما الإعتِبارُ بالصُّحبَةِ واقتِباسِ العُلومِ والأحوالِ .

والمريدُ إذا لَبِسَ الخِرْقةَ مِن شَيخٍ . . فكأنَّه حَكَّمَه في نَفْسِهِ ، فَشَرطُه : أنْ يَخرُجَ مِنِ اختيارِهِ وإرادتِهِ في الأشياءِ ، ويكونَ تحتَ اختيارِ الشَّيخِ ، وهٰذا يكونُ مُريداً حَقِيقِيّاً ، ومَن لا يَبلُغُ هٰذه الرُّتبَةَ . . فخِرقَتُهُ مُجرَّدُ التَّشَبُّهِ بالقَومِ ، و« مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ . . فَهُوَ مِنْهُمْ »[2] ، ويكونُ مُريداً رَسمِيّاً لا حَقِيقِيّاً .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٧٤) من حديث سيدتنا أم خالدٍ رضي الله عنها .

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٠٣١) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

السُّؤالُ السَّابعُ :

المريدُ إذا عَلِمَ مِنَ الأحكامِ ما لا بُدَّ لهُ مِنهُ . . فالأولَىٰ بهِ : الإنقطاعُ إلى اللهِ ، ودوامُ التَّبتُّلِ ؛ إلَّا أنْ يكونَ غيرَ صابرٍ على الحقِّ الصِّرْفِ ، ونفسُهُ لا تُجيبُ إلى الدَّأَبِ في العَمَلِ والذِّكرِ ، وتُطالِبُهُ بالبَطالَةِ ، فعندَ ذٰلكَ يَصرِفُ نَهَمَ البَطالَةِ إلى الإشتِغالِ بشيءٍ مِنَ العِلمِ مِنْ قَبيلِ فُروضِ الكِفاياتِ ؛ ليكونَ تَبتُّلُهُ عَزيمَةَ حالِهِ ، واشتِغالُهُ رُخصَةَ حالِهِ .

السُّؤالُ الثَّامنُ :

في هٰذا الزَّمانِ الأولَىٰ للمُريدِ تَركُ التَّزوُّجِ إذا لمْ يَخَفِ العَنَتَ ، ويَجتَهِدُ في نَفيِ خَواطِرِ التَّزوُّجِ ، وكلَّما ألمَّ بهِ خاطرُ النِّساءِ . . يَفِرُّ إلىٰ ربِّهِ مِنَ الخاطرِ ويَستَعِينُ بهِ ، فإذا فَعلَ ذٰلكَ ودامَ عليهِ . . سوفَ يَسوقُ الحقُّ إليهِ زوجةً صالحةً بمُؤنَتِها وكُلفَتِها ، ويكونُ مَحمُولاً فيها ومُعاناً مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالىٰ ، فلَا يَقطَعُهُ إذْ ذاكَ عنِ اللهِ .

السُّؤالُ التَّاسعُ :

الفَقِيرُ إذا تَزوَّجَ يَكتَسِبُ لِعِيالِهِ ، إلَّا أنْ يَفتَحَ الحقُّ عليهِ بابَ الفَضلِ والمزيدِ على الصِّحَّةِ ، وهٰذا إنَّما يكونُ لمريدٍ تَضِيقُ أوقاتُهُ عنِ الكَسْبِ ؛ لكمالِ شُغلِهِ بربِّهِ .

السُّؤال العاشرُ :

لا يَنبغِي للمُريدِ أنْ يَدَعَ الأعمالَ للخَلقِ ، ولا يَأتِي بها للخَلقِ ، وإذا أتَىٰ بالأعمالِ واسْتَرَقَتِ النَّفسُ الغَرَضَ بالإلتفاتِ إلى الخلقِ ، واستَحْلَتْ نظرَهُم إليهِ . . فيَستَغفِرُ اللهَ مِنْ ذٰلكَ الإستِحلَاءِ ، ولا يَدَعُ العملَ رأساً لأجلِ ذٰلكَ ، فبِتَركِهِ العملَ يزولُ الرِّياءُ .

السُّؤالُ الحاديَ عشَرَ :

لا يَنبَغِي للمُريدِ أنْ يَتواضَعَ للأغنياءِ لموضعِ غِناهُم ، ولا يَرفَعُ حاجَتَهُ إليهِم ؛ إلَّا إنْ دَعَتِ الضَّرورَةُ .

وإذا عَلِمَ أنَّ المالَ حرامٌ . . لا يجوزُ لهُ التَّلبُّسُ بهِ ألبَتَّةَ ، ولا يَحمِلُهُ الغُرورُ والإعتمادُ على الحالِ أنْ يأكُلَ المالَ الحرامَ ؛ فإنَّ المريدَ الصَّحِيحَ لا يُطفِئُ نُورُ حالِهِ نورَ ورَعِهِ ، سواءٌ كانَ مُجرَّداً أو مُتأهِّلاً .

السُّؤالُ الثَّانيَ عشَرَ :

يجوزُ للمُريدِ أنْ يَسكُنَ الرُّبُطَ المبْنِيَّةَ مِنْ أموالِ الوُلاةِ ، ولكنْ شَرطُ المريدِ ألَّا يَأكلَ مِنَ الوَقفِ إلَّا إذا كَمُلَ شُغلُهُ باللهِ ، ولمْ يَبْقَ للبَطالَةِ عليهِ سبيلٌ ، وإلَّا . . فالكَسبُ أَولىٰ بهِ ، ورُبَّما كانَ سُكنَى الرِّباطِ أبعدَ لهُ مِنَ الآفَةِ والشَّهوَةِ ؛ لأنَّ أربابَ الزَّوايا يَشتَهِرونَ أعجلَ مِنَ أربابِ الرُّبُطِ ، ولكنْ بشَرطِ ألَّا يَسترسِلَ في الإختِلاطِ ؛ فإنَّهُ الدَّاءُ المهلِكُ .

السُّؤالُ الثَّالثَ عشَرَ :

إذا وَجَدَ مالاً أقَلَّ شُبهَةً . . لا يَنبغِي أنْ يأكلَ ممَّا كانَ أكثرَ شُبهةً .

السُّؤالُ الرَّابعَ عشَرَ :

إذا لم يُبالِ بما أكلَ ولا يَتَورَّعُ . . لا يُبالي اللهُ أنْ يُهلِكَهُ .

السُّؤالُ الخامسَ عشَرَ :

إذا قَدَرَ علىٰ إزالَةِ مُنكَرٍ . . يَنبَغِي أنْ يُزيلَ وإنْ كانَ في نَفسِهِ مُخَلِّطاً ؛ فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ مأمورٌ بهِ ، ولكنْ يَنبَغِي أنْ يكونَ أمرُهُ بالمعروفِ مَعروفاً ، ولا يَسطُو على العُصاةِ بصلَاحِهِ ، ولكنْ يُزيلُ المنكَرَ نِيابَةً عنِ الشَّرعِ ، ويُخلِصُ النِّيَّةَ ، ويَنفِي الرِّياءَ والسُّمعَةَ .

السُّؤالُ السَّادسَ عشَرَ :

يَحتَسِبُ ويَستَغفِرُ مِنْ رُؤيَةِ نَفسِهِ .

السُّؤالُ السَّابعَ عشَرَ :

تَلقِينُ الذِّكرِ تَلقِيحُ باطنِ المريدِ الصَّادِقِ بِنفَسِ الشَّيخِ الصِّدِّيقِ ، وإنَّما يَصِحُّ هٰذا التَّلقِيحُ مِنْ شَيخٍ كامِلٍ ذِي قلبٍ تامِّ النُّورِ ؛ لأنَّ نُورَ الكَلِمَةِ يكونُ علىٰ قَدْرِ نُورانِيَّةِ القلبِ ، ونُورانِيَّةُ القلبِ علىٰ قَدْرِ زَوالِ هَوى النَّفْسِ ؛ فإذا زالَ الهوىٰ . . تَنوَّرَ القلبُ كلَّ التَّنوُّرِ ، وزَوالُ الهوَىٰ لا يكونُ بمعنى انعدامِهِ ، ولٰكنْ يكونُ بمعنىٰ تَرْكِ مُتابَعَتِهِ ، فلَا يكونُ لهُ هوىً مُتَّبَعٌ ؛ لأنَّ الهوَىٰ رُوحُ النَّفْسِ ، فلَا يَزولُ ، ولٰكنْ تَزولُ مُتابَعةُ الهوَىٰ ؛ فإذا لمْ يكُنْ هناكَ هوىً مُتَّبَعٌ . . يَستَكمِلُ القَلبُ النُّورَ ، ويَفِيضُ منهُ إلىٰ قُلوبِ المريدِينَ الصَّادِقينَ بواسِطةِ تَلقِينِ الكَلِمَةِ .

ومِثلُ هٰذا يكونُ شَيخاً ، ولا يَحتاجُ أنْ يَطلُبَ الخَلقَ ؛ فإنَّ قلوبَ أهلِ الصِّدقِ تَجِدُ نَفَسَ الرَّحمٰنِ عِندَهُ ، فتَأوِي إليهِ وتَطلُبُهُ ، فإذا أقامَ الحقُّ خَلقَهُ في طَلَبِهِ ، وأوقَعَ مَحبَّتَهُ في قلوبِ خَلقِهِ . . فحينَئذٍ يجوزُ لهُ أنْ يُطلِقَ لسانَ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ تِسعَةُ أعشارِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وعُشْرٌ عندَ الخَلقِ ، يُرِيدُ الخلقَ للهِ لا لنَفْسِهِ ، ويكونُ أمِينَ اللهِ في أرضِهِ ، فكمَا أنَّ جِبريلَ أمِينُ الوَحيِ لرسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . يكونُ الشَّيخُ أمِينَ العِلمِ والإلهامِ للمُرِيدِينَ الصَّادِقينَ .

وهٰذا جوابٌ عنِ السُّؤالِ الثَّامنَ عشَرَ ، وهو آخِرُ الأسئلَةِ :

يَنبَغِي أنْ نَعلَمَ : أنَّ الحَريصَ على الدُّنيا وجَمعِها وإقامَةِ الجاهِ . . لا يَصلُحُ أنْ يكونَ شيخاً ، ومَنْ يُؤهَّلُ للمَشيَخَةِ ذكرنَا أنَّهُ لا يكونُ لهُ هوىً مُتَّبَعٌ ؛ فإذا رأى المريدُ مِنْ شَيخِهِ ذٰلكَ . . يُراجِعُ اللهَ تعالىٰ ، ويُكثِرُ اللَّجْأَ إليهِ أنْ يَكشِفَ لهُ

حالَ الشَّيخِ : هلْ هو شَيخٌ حَقِيقَةً ، أم ادَّعى المشيخَةَ مِنْ غيرِ حقيقةٍ ، ولا يَعمَلُ المريدُ بمُجَرَّدِ ظَنِّهِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ صادِقاً . . سوفَ يَكشِفُ الحقُّ سبحانَهُ لهُ عن شأنِ الشَّيخِ وحَقيقَةِ أمرِهِ .

تمّت الأجوبة ، والحمد لله وحده

ومن جُملَةِ كلَامِه رحمةُ اللهِ عليه ، قالَ :

الرُّوحُ الحيَوانِيُّ المجَنَّسُ المسمَّىٰ نفساً ، حيثُ تَجنَّسَ بورودِ الرُّوحِ العُلوِيِّ عليهِ . . لهُ هُوِيٌّ وهُبوطٌ إلى العالَمِ السُّفليِّ بوضَعِ جِبِلَّتِهِ ؛ لأنَّ مَحتِدَهُ[1] أجزاءُ الأرضِ والتُّرابِ ؛ فهو لموضِعِ هُبوطِهِ وهُوِيِّهِ علىٰ ضَرْبٍ مِنَ الإنحرافِ ؛ بمَثابَةِ القَمَرِ في انحرافِهِ عن مُحاذاةِ الشَّمسِ ، وبقَدْرِ انحرافِه عَدِمَ استِنارتَهُ بنُورِ الرُّوحِ ؛ وذٰلكَ لبقاءِ وَصفِها بأنَّها الأمَّارةُ ، فإذا انتَزحَتْ مِنْ هٰذهِ الصِّفَةِ وصارَتْ لوَّامَةً . . استَنارَت بنُورِ الرُّوحِ ؛ كالقَمَرِ تَقدِيراً في اللَّيلَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الشَّهرِ ، فإذا اطمأنَّتْ كَمالَ الطُّمأنِينَةِ ، وفَاءَتْ إلىٰ أمرِ اللهِ . . فهيَ بمَثابةِ القَمَرِ إذا أبدَرَ في اللَّيلَةِ الرَّابِعَةَ عشْرَ .

وهٰذه الطُّمأنِينَةُ يُرزَقُها الرِّجالُ البالِغونَ ، فعندَ ذٰلكَ تكونُ بوجهِها الَّذي يَلي مُحاذاةَ الرُّوحِ مُشتاقةً إلىٰ بارِئِها ، مُجِيبَةً إلىٰ مَحابِّهِ تعالىٰ ، وبوجهِها الَّذي لها بِمثابةِ الظَّهْرِ مَيَّالةً إلىٰ حُظوظٍ فانيةٍ مِنْ أقسامِ الدُّنيا مِنَ الجاهِ والرَّفاهَةِ بتَيسيرِ مَآرِبِها العاجِلَةِ ، فاللهُ تعالىٰ يُسارِعُ إلىٰ مَحابِّها ؛ لِاستِقامَتِها واعتِدالِها وصِحَّةِ مُحاذاتِها للرُّوحِ ، ويَستَخرِجُ لها أزواجَ الحظوظِ العاجِلَةِ وصَفوَها مِنَ الجاهِ والمآرِبِ ، ويَمُنُّ عليها بها مِنْ غيرِ كَدٍّ لها وتَعَبٍ وطَلَبٍ ، ويُقِيمُ الدُّنيا خادِمةً لها ، وكلَّما وفَّرَ عليها حُظوظَها . . ازدادَتْ تَشرِقَةً وضِياءً واستمداداً مِنَ الرُّوحِ العُلْوِيِّ ، وازدادَ الرُّوحُ العُلوِيُّ عليها حُنُوّاً وإمداداً لها واستِمداداً مِنَ الخالِقِ الكريمِ لها .

وللحُظوظِ أرواحٌ لطيفةٌ ، تَستَخرِجُ الرُّوحُ تلكَ الأرواحَ بنِسبَةِ اللَّطافَةِ بَينَهُما بقوَّةٍ مِنَ اللهِ ، فكَشْفُ الحُظوظِ لطُلَّابِها والرَّاغِبينَ فيها بِشَرَهٍ وطَيشٍ جِبِلِّيٍّ

---

(١) المَحْتِدُ : هو الأصلُ والطَّبعُ . انظر « لسانَ العرب » (ح ت د) (١٣٩/٣) .

خيوانيّ ، ولطيفُ الحظوظِ لهـؤلاءِ الأعيانِ السّادةِ ؛ فلَا يُقاسُ عليهِم غيرُهُم مِنْ أهلِ الجِدِّ والإجتهادِ ، وأهلِ الزُّهدِ والعُبَّادِ .

والله المنعم المنان

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[1]

(١) استبعدتُ لَوحتَينِ مِنَ المخطوطِ في هٰذا الموضِعِ ؛ لوجودِهما بِنَصِّيهِما ضِمنَ رسالةِ « السَّيرِ والطُّيرِ » للمصنِّفِ .

ومِنْ كلَامِه رحمةُ اللهِ عليه :

الطَّريقُ عِندنا : أن يكونَ العبدُ مُقيماً على التَّوبَةِ ؛ بِمُلَازمَةِ التُّقَىٰ ظاهِراً وباطناً ، ويَزهَدَ في فُضولِ الدُّنيا ، فلَا يَهتَمُّ إلَّا بِقُوتِ يَومِهِ ؛ إنْ كُفِيَ الهمَّ .. يَكتَفِي ، وأن يَجتَنِبَ البَطالَةَ ؛ فيكونَ دائِمَ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ إمَّا بِباطنِه وظاهِرِه ، وإلَّا .. فبِباطنِه ، ومتَىٰ بَطَلَ .. ينامُ .

والسّلام

ومن كلَامِه : ما شَرحَ به كلِماتٍ لأبي مُحمَّدٍ الجُريريِّ[1] ، ذكرَها في آدابِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ :

قالَ الجُريريُّ : (التَّسرُّعُ إلى استِدراكِ علمِ الِانقطاعِ . . وسِيلةٌ) .

قالَ الشَّيخُ : معناهُ : أنَّ السَّالكَ لطريقِ الحقِّ تعالىٰ ، يكونُ ابنَ وقتِه ، فيَشتَغِلُ بوقتِهِ الحاضِرِ عن وَقتِهِ الفَائِتِ .

فقدْ يَتذَكَّرُ ما جَرىٰ عليهِ مِنْ مُخالَفَةِ الوَقتِ فِيما مَضىٰ ، ويَستَكشِفُ ما كانَ سببَ ذٰلكَ الدَّاخلِ عليهِ ؛ الَّذي بدُخولِهِ خالفَ حُكمَ الوَقتِ ، وكما قيلَ : مُخالفَةُ الوقتِ مَقْتٌ .

فبِفكرِهِ في ذٰلك يَنكَشِفُ لهُ الموجِبُ لمخالَفةِ الوقتِ ، ويكونُ تَطلُّعُهُ إلىٰ ذٰلكَ واهتمامُهُ بهِ وَسِيلةً مِنَ الوسائلِ الحسَنَةِ ؛ لأنَّهُ يُحدِثُ عندَهُ تأسُّفاً وتَحسُّراً ، ويَتَّقِي بذٰلكَ العِلمِ تلكَ الموجِباتِ لمخالفَةِ الأوقاتِ فِيما بَعدُ .

وإنَّما سُمِّيَ ذٰلكَ تَبرُّعاً ؛ لأنَّهُ أمرٌ فائتٌ ليسَ مِنْ حُكمِ الوقتِ ، فإذا صَرَفَ همَّهُ إلىٰ ذٰلكَ . . فكأنَّه تَبرَّعَ بشيءٍ ليسَ عليهِ في تركِ ذٰلكَ دَرَكٌ .

وقولُهُ : (الوقوفُ علىٰ حدِّ الِانحسارِ . . نَجاةٌ) .

معناهُ : أنَّ مَنْ دَخلَتْ عليهِ الفِتنَةُ بالِابتلَاءِ . . تَجلُبُ فِتنَةُ الِابتلَاءِ فِتنَةً أخرىٰ ؛ فتكونُ الأُخرىٰ عُقوبةَ الأُولىٰ ؛ فالسَّالكُ المتَيقِّظُ يَسُدُّ بابَ العُقوبَةِ بالفِتنَةِ الثَّانيَةِ ؛ لما يَنالُ قلبَهُ مِنْ لَذْعِ الأوَّلةِ ؛ فباللَّذعِ الَّذي يَجِدُهُ مِنَ الفِتنَةِ . . يَنْكوِي مَحَلُّ وُثوبِ النَّفسِ الدَّاعِي إلى الفِتنَةِ الأُخرَىٰ ، فيكونُ وقوفُهُ علىٰ حَدِّ الِانحسارِ نَجاةٌ ؛ لأنَّهُ يَنجُو مِنَ الثَّانيةِ .

وقولُهُ : (اللِّياذُ بالهرَبِ مِن عِلمِ الدُّنُوِّ . . وُصلَةٌ) .

---

(١) أخرج المؤلِّف هٰذه الكلمات في « عوارف المعارف » (٢/١٠٣) بإسناده إلى الجريري .

معناهُ : أنَّهُ إذا هَجَمَ بِشغَفِ قلبِهِ على حَريمِ القُرْبِ[1] . . يَمتَلِئُ القلبُ فَرَحاً ، والنَّفسُ تَستَرِقُ السَّمعَ إذْ ذاكَ ؛ فتَستَفِيدُ مِنِ استراقِ السَّمعِ حظّاً يُحدِثُ عندَ النَّفسِ نَشاطاً ، وفي ذٰلكَ النَّشاطِ هَتكُ حُرُماتِ سُبُحاتِ الجَلالِ .

والأدبُ في إبقاءِ حقِّ الهَيبةِ : أن يَلوذَ بالهربِ مِنْ عِلمِ الدُّنوِّ ، وكلَّما هَرَبَ . . قَرُبَ ؛ فإنَّهُ يَهرُبُ ببقاءِ وُجودِهِ ، وفي ذٰلكَ الهربِ رَدُّ نشاطِ النَّفسِ ، وحَصرُها في مَقارِّ مَركزِها ، والحقُّ إذْ ذاكَ يَطلُبُ قلبَهُ ، وقلبُهُ يطلبُ الحقَّ ؛ فتُحَقَّقُ الوُصلَةُ حينئذٍ .

وقولُهُ : (استقباحُ فَقْدِ تركِ الجوابِ . . ذَخِيرةٌ)[2] .

معناهُ : أنَّ السَّالكَ لهُ صِدقُ اللَّجَأِ فِيما يَضطَرُّ فيهِ مِنْ ظُهورِ النَّفسِ أو تَسلُّطِ العَدُوِّ والشَّيطانِ ، والرَّبُّ يُجِيبُه إذا دعاه بلسانِ الإضطرارِ ؛ فَفي بعضِ الأحايينِ قدْ لا يُجِيبُهُ الحقُّ سبحانَهُ عقوبةً لهُ على ذَنبٍ مُتقَدِّمٍ مِنْ ذُنوبِ حالِهِ ، فيَتفكَّرُ العبدُ في جِرمَانِهِ بِترَكِ الجوابِ .

أيْ : أنَّ الحقَّ ما أجابَه ؛ فيَنكَمِدُ لذٰلكَ ، ويَحصُلُ بانكمادِهِ في وَرْطَةِ الفُتورِ والوَقفَةِ والحَجْبَةِ .

والفُتورُ في العملِ ، والوَقفَةُ في سدِّ بابِ المزيدِ ، والحَجبَةُ في تكدُّرِ مَوارِدِ المَشاهدِ .

فبِكَونِهِ يَعزُبُ ذِكرُ تَركِ الجوابِ ، ويَفقِدُ انصِرافَ الهمِّ إلى التَّفكُّرِ في تَركِ الجوابِ . . لا يَنكَمِدُ باطنُهُ ، ولا يَقَعُ في وَرْطَةِ الفُتورِ والوَقفَةِ والحَجْبَةِ ، فاستِفتاحُهُ هٰذا الفَقدَ ذَخِيرةٌ ؛ لأنَّ بهِ تَخلَّصَ عن ظَفَرِ العَدُوِّ بهِ بِما يَعِدُ مِنَ الفَقرِ الَّذي هو دَأْبُهُ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[3] .

---

(١) أي : بساحةِ وفناءِ القُربِ .

(٢) في « عوارف المعارف » (٢/١٠٣) : (استقباح ترك الجواب ذخيرة) .

(٣) سورة البقرة : (٢٦٨) .

وقولُهُ : (الاعتصامُ مِنْ قَبولِ دَواعِي استماعِ[1] الخِطابِ . . تَكلُّفٌ) .

معناهُ : أنَّ العبدَ المُكلَّمَ المُحدَّثَ مِنْ مُكلِّمَتِهِ ومحدِّثَتِهِ ؛ أنَّهُ إذا تَلَا كلَامَ اللهِ تعالىٰ . . كأنَّ الحقَّ يُخاطِبُهُ ، فيأخُذُ مِنْ أسرارِ القُرآنِ بحُسْنِ الإصغاءِ وكمالِ الوَعيِ ما يكونُ مَزيدَ حالِهِ وسَعةَ عِلمِهِ ، فقدْ يتَقاضَاهُ القلبُ بالغُفولِ عن حُسْنِ الإصغاءِ ؛ بزعمِهِ أنَّ الإقبالَ على المتَكَلِّمِ وتَصفِيةَ مَوردِ المشاهَدةِ . . أتمُّ لهُ وأكمَلُ ، فيَعتَصِمُ بالتَّطلُّعِ إلىٰ صَفوِ المشاهَدةِ عن قَبولِ دَواعِي استِماعِ الخِطابِ ، في ذٰلكَ تَكلُّفٌ .

واللهُ تعالىٰ أمرَ بالجَمعِ بينَ المشاهَدةِ والسَّمعِ[2] ، فقالَ : ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[3] ، فكونُهُ يَتِيهُ علىٰ قَبولِ دَواعِي استِماعِ الخطابِ فيهِ تَكلُّفٌ .

وقولُهُ : (خوفُ فَوتِ عِلمٍ[4] ما انطَوىٰ مِنْ فَصاحَةِ الفَهمِ في حَيِّزِ الإقبالِ . . مَساءةٌ) .

معناهُ : أنَّ المُشاهِدَ إذا تلَا آياتِ اللهِ . . يَنبَغِي لهُ أنْ يَكتَفِيَ بِما أُنِيلَ في مَقامِ المشاهَدةِ ، ويَقنَعَ بصَفوِ ما انصَبَّ إلىٰ قَلبِهِ مِنْ أسرارِ القُرآنِ مِنْ غيرِ تَعمُّلٍ وتَكلُّفٍ ، وقدْ يَعلَمُ السَّالكُ أنَّ ما رُزِقَ مِنْ صفاءِ الفَهمِ يَسِيرٌ مِنْ كَثيرٍ ، وأسرارُ القرآنِ لا نِهايةَ لها ؛ فكونُهُ لا يَكتَفِي بمُشاهَدتِهِ ، ولا يَقنَعُ بما انكشَفَ لهُ مِنَ الأسرارِ ، ويَخافُ أنْ يَنطَوِيَ عنهُ كثيرٌ منهُ ، أو يَضِيقَ عنها وِعاءُ فَهمِهِ ، هٰذا الخوفُ مَساءةٌ ؛ لأنَّهُ عَدِمَ القَناعةَ بما مُنِحَ وأُعطيَ ، واللهُ تعالىٰ قالَ لنَبِيِّه موسىٰ عليهِ السَّلامُ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[5] .

وقولُهُ : (الإصغاءُ إلىٰ تَلقِّي ما يَنفَصِلُ مِنْ مَعدِنِهِ . . بُعدٌ) .

---

(١) كلمة (استماع) زيادة من « عوارف المعارف » (٢/١٠٣) .

(٢) في الأصل : (والجمع) ، بدل (والسَّمع) ، ولعلَّه سبقُ قَلَمٍ مِنَ النَّاسخِ .

(٣) سورة قٓ : (٣٧) .

(٤) كلمة (علم) زيادة من « عوارف المعارف » (٢/١٠٣) .

(٥) سورة الأعراف : (١٤٤) .

معناهُ : يَنبَغِي للسَّالكِ ألَّا يَنحَجِبَ بِفَهمِ أسرارِ القرآنِ عن مُطالَعةِ عَظَمةِ المتكلِّمِ ؛ بلْ لا يَدَعُ الكلِمةَ مِنَ القرآنِ تَنفَصِلُ مِنْ مَعدِنِها ؛ بلْ يَرىٰ طرَفَها المتَّصِلَ بالمتكلِّمِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ فإنْ تلقَّاها مُنفَصِلةً مِنْ مَعدِنِها غيرَ مُتَّصلَةٍ بالمتكلِّمِ . . فإصغاؤُهُ إلىٰ تلقِّيها يكونُ بُعداً .

وقولُهُ : (الِاستِسلَامُ عندَ التَّلاقِي . . جُزْأَةٌ) .

معناهُ : أنَّ المُشاهِدَ يَنبَغِي ألَّا يَسترسِلَ في مُشاهَدتِهِ ، ولا يُحدِّقَ نورَ البَصيرةِ في سُطوعِ نورِ الجلالِ ؛ بلْ تَرُدُّهُ سَطَواتُ الهَيبَةِ كما يَرُدُّ شُعاعُ الشَّمسِ الشُّعاعَ المنبَعِثَ مِنَ الحدَقةِ ؛ ففي تَحدُّقِ البَصيرَةِ إلىٰ سُطوعِ نُورِ الجَلالِ جُرأةٌ وتَهجُّمٌ ، وفي ذٰلكَ سوءُ الأدبِ في مَظانِّ القُربِ ، ولهٰذا في الشَّاهِدِ نَظيرٌ .

وقولُهُ : (الِانبِساطُ في مَحَلِّ الأُنسِ . . غِرَّةٌ) .

معناهُ : إذا فُتِحَ على القلبِ بابُ الأُنسِ . . تَنفَتِحُ مَشامُّ الوُجودِ ، وبانفِتاحِ مَشامِّ الوُجودِ تَمتَزِجُ النَّفسُ بالقلبِ والقلبُ بالرُّوحِ ، وفي تلكَ المواطنِ يُفتَحُ للسَّالكِ انبِساطاتٌ ، وفي ذٰلكَ فَرْطُ الاغترارِ .

فالمتفَطِّنُ في مَحلِّ الأُنسِ لا يَنبَسِطُ ؛ بلْ يَندَرِجُ بعضٌ في البَعضِ ، فكما ارتقَتِ النَّفسُ إلىٰ مَحَلِّ القلبِ والقلبُ إلىٰ مَحلِّ الرُّوحِ في البَسطِ . . يَرِدُ الرُّوحُ مَحَلَّ القلبِ والقلبَ إلىٰ مَحَلِّ النَّفسِ ، ويَقَعُ بينَ يَدَيِ الحقِّ مُستَكِيناً فقيراً ؛ ففي ذٰلكَ كمالُ الأدبِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « سَجَدَ لَكَ سَوادِي وَخَيَالِي . . . » الحديثَ[1] .

وهٰذا تمام الشرح

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البزار في « المسند » (٢٠٣٤) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٥٠٣) والحاكم في « المستدرك » (٥٣٣/١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
وأخرجه أبو يعلىٰ في « المسند » (٤٦٦١) ، والطبراني في « الدعاء » (٦٠٦) ، وأبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم » (٥٦٩) من حديث سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

ومِن جُملَةِ وصاياهُ ـ قـدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ـ : ما وصَّىٰ بها بعضَ الفُقراءِ ، قالَ رحمَه اللهُ :

عليكَ بمُلازمَةِ التَّقوىٰ ؛ فهي وَصِيَّةُ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ ، قالَ عَزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1] ، ومِـنَ المتَّقِينَ مَنْ هو واقِفٌ علىٰ رُخصَةِ التَّقوىٰ ، عامِلٌ بقولِ اللهِ سبحانَهُ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] ، ومنهُم واقفٌ علىٰ عَزيمَةِ التَّقوىٰ عامِلٌ بقولِ اللهِ تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[3] .

فالأوَّلُ : مُطالِبٌ نفسَهُ بتَسويَةِ الظَّاهرِ علىٰ نَهجِ الشَّرعِ ، مُلازِمٌ للتَّوبَةِ بضَبطِ الجوارحِ عنِ المَناهِي .

والثَّاني : مُطالِبٌ نفسَهُ بتَسويَةِ الباطنِ ؛ إمَّا بِدَوامِ الكَشفِ والمشاهَدةِ ، وإمَّا بقِيامِ حقيقةِ المراقَبةِ ، ولا يَرتَقِي إلىٰ هٰذه العَزيمَةِ إلَّا بعدَ إحكامِ تلكَ الرُّخصَةِ ؛ وهي تَسويةُ الظَّاهرِ بلُزومِ التَّوبةِ ، والقِيامِ برُخصَةِ التَّقوىٰ .

وما يتَخلَّفُ المتَخلِّفُ عنِ الزُّهدِ إلَّا لإخلالِهِ بهٰذه الرُّخصَةِ ، ومَنْ رُزِقَ القِيامَ برخصَةِ التَّقوىٰ على الوَجهِ . . يُثمِرُ لهُ الزُّهدَ في الدُّنيا ، ويعقبُ الزُّهدَ في الدُّنيا عَزيمَةُ التَّقوىٰ ، ومَن رُزِقَ عزيمةَ التَّقوىٰ . . يُؤدِّي حقَّ باطنِ العلمِ وظاهرِهِ بالعمَلِ بهِ .

والعامِلُ بالعلمِ الباطنِ والظَّاهرِ يكونُ قوَّاماً بالقِسطِ علىٰ نفسِهِ ، والقَوَّامُ بالقِسطِ لا يَنطِقُ إلَّا بالعلمِ ، ولا يَسكُتُ إلَّا بالعلمِ ، ولا يقومُ إلَّا بعلمٍ ،

---

(١) سورة النساء : (١٣١) .

(٢) سورة التغابن : (١٦) .

(٣) سورة آل عمران : (١٠٢) .

ونورُ العلمِ يَسري في جَميعِ أجزاءِ زَمانِهِ ؛ مُستَوعِباً لجميعِ تَصاريفِهِ وتَقلُّباتِهِ .

وأساسُ هٰذا الأمرِ ومَبدؤُه : قِلَّةُ الكلَامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، وقِلَّةُ الطَّعامِ ، والإعتزالُ عنِ النَّاسِ .

والمشايخُ السَّلَفُ الصَّالحُ ـ قدَّسَ اللهُ أرواحَهم ـ منهُم مَنْ أُقِيمَ مُقامَ رُخصَةِ التَّقوىٰ ، ومنهُم مَنْ رُقِّيَ إلىٰ رُتبَةِ العَزيمَةِ ، والرُّؤساءُ منهُم جُعِلوا أئمَّةَ المتَّقِينَ وأعلامَ الدِّينِ ؛ ففاضَتْ أوعِيةُ قلوبِهِم للإتِّباعِ ، واستنارَتْ بواطِنُ الصَّادِقينَ بأنفاسِ الصِّدِّيقِينَ مِنَ المشايخِ الماضِينَ .

وما زالَ مِيراثُ النُّبوَّةِ يَتوارَثُهُ خَلَفٌ عن سَلَفٍ ، انتَقلَ ذٰلكَ إلى الصَّحابةِ رِضوانُ اللهِ عليهِم بواسِطَةِ الإقتداءِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومُلازَمَتِهِم لصُحبَتِهِ حَضَراً وسَفَراً ، وانتقلَ مِنَ الصَّحابةِ إلى التَّابعينَ ، وهٰكذا سُنَّةُ اللهِ تعالىٰ جاريةٌ بالإنتفاعِ بطريقِ الإتِّباعِ والصُّحبَةِ ؛ فصارَتِ الصُّحبَةُ للهِ مِنَ الصَّادِقينَ مع الصِّدِّيقِينَ مُثمِرةً مُكسِبَةً سَنِيَّ الأحوالِ ، ولمْ يكُنْ للمُتقدِّمِينَ مِنَ المشايخِ إلَّا الصُّحبَةُ .

والمريدُ يَنتَمِي إلى الشَّيخِ بطريقِ الصُّحبَةِ .

ثمَّ صارَ للمتأخِّرينَ اختِيارٌ في لُبسِ الخِرْقَةِ ؛ ليكونَ تَصَرُّفُهُم في ظاهرِ المريدِ دَلَالةَ تَصرُّفِهِم في باطنِهِ ، وكلُّ مُريدٍ أحسنَ المتابعةَ . . اقتَبسَ مِنْ حالِ الشَّيخِ نَصِيباً .

والوَصِيَّةُ : أن يَحذَرَ العُجْبَ ورُؤيَةَ المنزِلَةِ والمزِيَّةِ لنفسِهِ علىٰ غَيرِهِ ؛ بل يَرىٰ يدَهُ في ذٰلكَ نائبةً ، ويَتبَرَّكُ بالطَّالبِ الرَّاغبِ ، ويَجتَهِدُ في إعانَتِهِ على البِرِّ والتَّقوىٰ وسُلوكِ طريقِ الحقِّ مِنَ الهُدىٰ ، مُجتَنِباً زَهوَ النَّفسِ في ذٰلكَ ، مُطالِباً لنفسِهِ بالقِيامِ بشُكرِ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ .

ومهما تَمسَّكَ بالوَحدَةِ والعُزلَةِ . . تَدَارَكَهُ بالخَلْوَةِ للهِ تعالىٰ مَعونةٌ إلٰهيَّةٌ بقَدْرِ أنْ يكونَ في جَلْوَتِهِ مُعاناً مَحفوظاً .

والله يتولّى الصالحين[1]

(١) بعده في الأصل وصية أخرىٰ عند لُبسِ الخِرقَةِ للشيخ نصر المزين رحمه الله تعالىٰ . بمقدار (٧) ورقات ، وقد تم إدراجها ضمن « رسالة الإرادة » من هٰذا المجموع .

ومن كلَامِه رحمةُ الله عليه :

العبدُ المرادُ بالحظِّ الأوفرِ مِنْ فَضلِ اللهِ تعالىٰ ونَفائسِ مَواهبِهِ وسَنِيِّ مِنَحِهِ .. يُوفَّقُ للعملِ الموافِقِ للكتابِ العزيزِ الَّذي : ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] ، ويَتَّبِعُ آثارَ السُّنَنِ المرضِيَّةِ ؛ الَّتي بها يَصِحُّ الِاقتِداءُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فإذا أَحكَمَ هٰذا الأصلَ .. وقَفَ على الطَّريقِ القَويمِ والصِّراطِ المستَقِيمِ ، وتَحقَّقَ بالتَّقوىٰ ، وانحَرسَتْ جوارِحُهُ عنِ المناهِي ، وأمسَكَ الأوامِرَ ؛ يُوشِكُ أنْ يَتراءىٰ حقائقَ الزُّهدِ في الدُّنيا ، فبِذٰلكَ يَتِمُّ لهُ الِاقتِداءُ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وحقائقُ الزُّهدِ : تَتَحقَّقُ بالزُّهدِ في الهوىٰ ، وما تَدعو النَّفسُ إليهِ بخَفِيِّ شَهَواتِها وجليِّها[2]

فمِنْ ذٰلكَ : الزُّهدُ في طَلبِ المنزِلَةِ عندَ الخَلقِ والجاهِ عندَهم بسببٍ دُنيويٍّ أو أُخرويٍّ ، ويدخُلُ في ضَرورةِ ذٰلكَ الِانخِلَاعُ عن عَوائدِهِم ورُسومِهِم ، ويدخلُ في الزُّهدِ تركُ الحِرصِ وتَعلُّقِ الهمِّ بأمرِ غَدٍ ؛ فإنَّ الزَّاهِدَ الصَّادِقَ إذا ارتَهنَ بِهَمِّ غَدٍ .. لا يُؤدِّي حقَّ العُبوديَّةِ في يَومِهِ ، فإذا أَحكَمَ هٰذا الأصلَ الثَّاني ـ وهو الزُّهدُ في الدُّنيا ـ استَقامَ ظاهِرُهُ .

ويَستَقِيمُ باطنُه أيضاً بعدَمِ الوَساوِسِ وحديثِ النَّفسِ ، والِاستِرسالِ في الفِكرِ في الفُضولِ ، ويَنبَعِثُ عندَ ذٰلكَ مِنْ باطنِهِ دوامُ التَّلزُّمِ[3] بخالصِ الذِّكرِ ، ويَتَّضِعُ قلبُهُ بأنوارِ أشِعَّةِ العَظَمَةِ الإلٰهيَّةِ ، ويكونُ مُشاهِداً ببصيرةِ القلبِ ، ويَغارُ حينئذٍ علىٰ صَفاءِ شُهودِهِ أنْ يَتكدَّرَ بِشَوبِ وُجودِهِ ؛ فيُديمُ العملَ للهِ تعالىٰ بقالَبِهِ أيضاً ؛

---

(١) سورة فصلت : (٤٢) .

(٢) أي : جليّ شهواتها .

(٣) التَّلزُّمُ بمعنى اللزوم .

مِنَ الصَّلَاةِ والتِّلاوَةِ وأذكارِ اللِّسانِ مع مُواطأةِ القلبِ ؛ ليَستَعِينَ بالظَّاهرِ على الباطنِ ، وبالباطنِ على الظَّاهرِ .

وقدْ غَلِطَ قومٌ فأهمَلوا عمَلَ الظَّاهرِ سِوى الفرائضِ ، وذٰلكَ نُقصانُ حظٍّ مِنَ العِلمِ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فإذا اتَّسَقَت أحوالُه علىٰ هٰذا الوَجهِ . . يُلهَمُ فائدةَ تَركِ التَّدبيرِ والاختيارِ ، ويَتبَرَّأُ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ ، ولا يُريدُ الأشياءَ إلَّا للهِ ، ويكونُ كما قال اللهُ تعالىٰ لنَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

فإذا بَرِئَتْ ساحتُهُ ، وذَهبَتْ أعراضُ نفسِهِ ، ولا يَنعَطِفُ علىٰ مُتابَعَةِ هوىً كامِنٍ في النَّفسِ ، وانكشَفَ كوامِنُ الهوَىٰ وخَباياهُ بما انعَكسَ علىٰ نفسِهِ مِنْ نورِ قلبِهِ ، فلمْ يبقَ فيهِ خَبيئةٌ مَخفِيَّةٌ مِنَ الهوَىٰ . . يُفتَحُ عليهِ عندَ ذٰلكَ بابُ الأدبِ ؛ حتَّىٰ إذا (٣) انبَعثَ مِنْ باطنِهِ مَيلٌ أو إرادةٌ لشَيءٍ مِنْ أمرِ مَعاشِهِ ومَصالِحِ عاجِلَتِهِ ، أو نزلَ بهِ أمرٌ يَشتَبِهُ عليهِ الدُّخولُ فيهِ أو التَّبرِّي منهُ . . يُنزِلُهُ بمَولاهُ مُتبرِّياً مِنْ تَدبيرِهِ واختيارِهِ وحَولِهِ وقُوَّتِهِ وعِلمِهِ ، فيَكشِفُ لهُ الحقُّ سبحانَهُ عن وجهِ الصَّوابِ فيهِ كيفَ شاءَ وأحَبَّ ؛ إمَّا في نومِهِ أو يَقظتِهِ .

ووجوهُ الكَشفِ مُتعدِّدةٌ ، والأخبارُ عنها والإشارةُ إلىٰ تفاصيلِها لا فائدةَ فيهِ ؛ لأنَّهُ رُبَّما يدَّعي ذٰلكَ مُدَّعٍ أو يَغلِطُ بهِ غالطٌ ، والمرادُ بذٰلكَ يَعلَمُ كيفيَّتَهُ ويَطَّلِعُ عليهِ بتأييدِ اللهِ تعالىٰ ، وهو العبدُ الَّذي وُفِّقَ للمُقدِّماتِ الَّتي ذكرناها .

---

(١) سورة يوسف : (٧٦) .

(٢) سورة الأنعام : (١٦٢) .

(٣) كلمة (إذا) زيادة يقتضيها السياق .

فإذا أُهِّلَ لعلمِ الإذنِ وتَحقَّقَ بهِ . . يَحضُرُهُ صُحبةٌ في الإذنِ ، ويأتِيهِ الفَهمُ مِنَ اللهِ ، ويكونُ في الأشياءِ باللهِ لا بِنَفسِهِ ؛ فيكونُ باللهِ يَنطِقُ ، وباللهِ يُبصِرُ ، وباللهِ يَسمَعُ ، ثمَّ يَنكَشِفُ لهُ بعدَ ذٰلكَ أمورٌ فوقَ ذٰلكَ بفضلِ اللهِ وكَرَمِهِ .

والله الموفق والمعين[1]

(١) بعده في الأصل : (ومن كلامه عند توجُّه صفي الدين علي الموقاني ورجوعه إلى وطنه . . .) ، بمقدار ورقتين ، وقد تم إفراد هٰذه الرسالة ضمن هٰذا المجموع .

وصِيَّةٌ أخرىٰ لبعضِ أصحابِه :

قالَ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] ، فمَنْ تَعرَّفَ إليهِ مَولاهُ ، وكشَفَ عن بَصيرتِهِ ، ومَلأَ قلبَهُ يَقيناً . . فقدِ اجتَباهُ ، ومَنِ اجتباهُ . . فقدْ خصَّهُ بنِعمَتِهِ العُظمَىٰ ، والنِّعمَةُ العُظمَىٰ تُوجِبُ الشُّكرَ العَظِيمَ ، وأنَّىٰ للعبدِ الضَّعيفِ القِيامُ بذٰلكَ ؟! ولٰكنْ يَبذُلُ المجهودَ في ذٰلكَ ؛ فما عَسىٰ أنْ يَقدِرَ العبدُ عليهِ مِنْ شُكرِ هٰذه النِّعمَةِ العَظِيمَةِ أنْ يَستَعمِلَ ظاهرَهُ أوَّلاً بأوامرِ الشَّرعِ ، ويُنزِّهَهُ عنِ المناهِي ، ثمَّ يُنزِّهُهُ بعدَ ذٰلكَ عمَّا لا يَعنِي مِنَ القَولِ والفعلِ والنَّظرِ والحركةِ ؛ فتكونُ جوارِحُهُ مُقيَّدةً بالعلمِ ، لا يُطلِقُها إلَّا في مَصلَحةٍ دِينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ ، ففُضولُ القَولِ والعَملِ ـ وإنْ كانَ مُباحاً شرعاً ـ يُعِيرُ القلبَ ظُلمَةً وقَسوَةً ؛ فيَجتَنِبُ العبدُ ذٰلكَ ، وهو بعضُ شُكرِ الِاجتباءِ .

ومِنَ الشُّكرِ : قطعُ الهمِّ عن فُضولِ الدُّنيا وشَهواتِها ، وإخراجُ فضولِ الدُّنيا مِنَ اليدِ ، والقناعةُ بالقُوتِ إنْ لمْ يَقدِرْ على الوُقوفِ على الضَّرورةِ مِنَ البُلغَةِ ، فلو وقفَ علىٰ قَدْرِ الضَّرورَةِ . . كانَ أتمَّ شُكراً ، والحدُّ المعتَدِلُ في ذٰلكَ مِنْ غيرِ إفراطٍ وتَفريطٍ : رِطلٌ بالبَغدادِيِّ[2] مِنَ الخبزِ مِنْ غيرِ إدامٍ .

ومِن كُفرانِ نعمةِ الِاجتباءِ : طلبُ المنزلةِ عندَ الخلقِ ، والتَّصنُّعُ والتَّزيُّنُ لهُم بيَسيرٍ مِنَ الكلامِ والحرَكةِ ؛ فليَحذَرْ مِنْ ذٰلكَ العبدُ ، فهو الدَّاءُ العُضالُ .

ومِن شُكرِ الِاجتباءِ : أنْ تكونَ الأوقاتُ كلُّها مَعمُورةً بفعلِ الرِّضا ؛ وهو لزومُ

---

(١) سورة الشورىٰ : (١٣) .

(٢) وهو يساوي (١٣٠) درهماً ، أو ما يعادل (٢٥ و٤٠٦) جراماً . انظر « المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري » (ص ٣٥) .

صُوَرِ العباداتِ والأذكارِ مِنْ غيرِ أنْ يَتخللها بَطالةٌ ألبَتَّةَ ، فيَنتَقِلُ العبدُ مِنَ الصَّلاةِ إلى التِّلاوةِ إلى الذِّكرِ إلى المراقَبةِ ، وهو أقلُّ الرُّتَبِ ؛ إذِ المصلِّي المتيقِّظُ والتَّالي والذَّاكرُ لهُ حقيقةُ المراقَبةِ مع زِيادةِ صُوَرِ العِبادةِ ، والمراقِبُ أفرَدَ عِلمَ القلبِ بنظرِ اللهِ إليهِ .

فأمَّا المشاهَدةُ . . فهي الهِدايةُ الخاصَّةُ ، وهي مِيراثُ الإنابةِ الخاصَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (١) .

فالإنابةُ عبوديَّةٌ ، وهو مَوضِعُ كَسبِ العبدِ ، وهو إدامةُ الإلتجاءِ إلى اللهِ فيما يَعترِيهِ مِنَ الخواطرِ والعزائمِ والنِّيَّاتِ الَّتي هي مَبادِئُ الحركاتِ ، فمَنْ أدامَ التَّضرُّعَ إلىٰ مَولاهُ . . لم يَستَقِلَّ بحركةٍ وبلفظَةٍ وإنْ قَلَّتْ ؛ بل قدَّمَ عليها الإلتجاءَ إلى اللهِ والتَّضرُّعَ إليهِ ، فتَحَ اللهُ عليهِ بابَ المشاهَدةِ ؛ وهو تَنويرُ الباطنِ بأنوارِ الجَلالِ والعَظمَةِ ؛ فحينئذٍ تَصحَبُهُ المشاهَدةُ في صَلاتِهِ وتِلاوَتِهِ وذِكرِهِ ، وهو خاصٌّ بخاصٍّ .

وصاحبُ هٰذه الهدايةِ خُصَّ بنِعمَةٍ ثانيةٍ بعدَ الإجتباءِ ، وصارَ مُطالَباً بشُكرِ هٰذه النِّعمَةِ ، فشُكرُ هٰذه النِّعمَةِ بتَركِ النِّسيانِ والغَفلةِ ، وتَركِ ما يُولِّدُ النِّسيانَ والغَفلةَ والسَّهوَ الجاري بِوَضعِ الجِبلَّةِ ، والَّذي يُولِّدُ النِّسيانَ والغَفلةَ : الذُّهولُ عنِ الإلتجاءِ عندَ لطيفِ الإبتلاءِ .

والإبتلاءُ يكونُ ظاهِراً في الظَّاهرِ ، وباطِناً في الباطنِ ، وعلىٰ قَدْرِ الإلتجاءِ مَعرِفةُ دقيقِ الإبتلاءِ ، وعلىٰ قَدْرِ ذٰلكَ يكونُ العِلمُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، والحُظوَةُ مِنَ المشاهَدةِ والعُكوفُ على الحضرةِ الإلٰهيَّةِ ، ومطالعةُ هٰذا القدرِ مِنَ الكلامِ الَّذي أجراهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ وكتَبتُهُ بخَطِّي . . يُغْنِي عنِ الإكثارِ مِنَ الوَصِيَّةِ .

وهٰذا الكلامُ باستِدعاءِ الفَقيرِ إلىٰ رحمةِ اللهِ تعالى الولَدِ العالمِ الزَّاهدِ

---

(١) سورة الشورىٰ : (١٣) .

عِمادِ الدِّينِ حامدِ بنِ عُقبةَ بنِ هِبَةِ اللهِ[1] ؛ إذْ طَلبَ مِنِّي الوَصِيَّةَ ، وفَّقَهُ اللهُ لمرضَاتِهِ ، وبَلَّغَهُ مِنْ مَواهبِهِ ونِعَمِهِ ما يَبتَغِيهِ ، وما لا يَبلُغُ فهمُهُ حتَّىٰ يَبتَغِيهِ ، وقدْ صَحِبَنِي مُدَّةً أرادَها اللهُ تعالىٰ ، ورَغِبَ في الصُّحبَةِ للهِ ، وقدْ ألبَستُهُ خِرقَةَ المشايخِ ، والخِرقَةُ هي مُقدِّمةُ الصُّحبَةِ ، والصُّحبَةُ هي الأصلُ ، وهي المطلوبةُ .

فليُطالِعْ لأوَّلِ الكلامِ ويَتدبَّرْهُ ، واللهُ يُلهِمُهُ الرُّشدَ والصَّوابَ ، ويَرزُقُهُ الفَهمَ عنهُ والإصغاءَ إليهِ .

وتفصيلُ بعضِ ما تقدَّمَ :

أنَّهُ يَجتَنِبُ مُخالَطةَ الخلقِ ، ويَكتَفِي مِنَ الخلقِ ومُخالَطتِهم بحضورِهِ معَهُم في الجُمُعةِ والجماعةِ ، ويَتمسَّكُ بقيامِ اللَّيلِ والتِّلاوةِ ، ولا يَقدِرُ علىٰ أداءِ حقِّ اللَّيلِ إلَّا بأداءِ حقِّ النَّهارِ ، وعلىٰ قدرِ ما يَضِيعُ النَّهارُ يَضِيعُ اللَّيلُ ، فليفهَمْ ذٰلكَ .

ويَجتَنِبُ خَفايا الرِّياءِ الَّذي هو الشِّركُ الخَفِيُّ ، ولا يُضيِّعُ الوقتَ في تَدبيرِ القُوتِ ؛ فالكسبُ لمَنْ ما ظَفِرَ بحقيقةِ عِزَّةِ الوقتِ ، أو لممَكِّنٍ مَلَكَ ناصِيَةَ الوقتِ ؛ ومتَىٰ جاءَ شيءٌ مِن غيرِ مسألةٍ وتَسبُّبٍ . . يَقبَلُ ؛ فإنْ أرادَ . . تَلبَّسَ بهِ ، وإلَّا . . أخرجَهُ باطناً كما أخذَهُ ظاهراً ، فلهُ في ذٰلكَ فوائدُ جمَّةٌ .

ويَجتَنِبُ الأسبابَ والإستِرسالَ فيها مهما أمكنَ ؛ فإنَّها مُتَّكأُ النُّفوسِ ، ويَتعوَّضُ عن طلبِ الفضائلِ مِنَ الزِّياراتِ والسِّياحاتِ بالصَّبرِ على اللهِ وعلىٰ عِبادتِهِ ، فللنَّفسِ في صُوَرِ الفضائلِ تَرويحاتٌ خَفِيَّةٌ ربَّما زادَتْ علىٰ حدِّ التَّرويحِ ، فغيَّرَتِ القلبَ وكدَّرَتِ الوقتَ .

---

(١) هناك ترجمة غير مكتملة لشخص يُدعىٰ (عماد الدين سعد الله بن حامد بن عقبة الحنفي) في « مجمع الآداب » (٧٣/٢) قال فيها ابن الفوطي البغدادي : (إنه كتب للمذكور إجازةً ولأولاده وأحفاده في « ٦٩٧ هـ » ولم تتح النسخ الخطية للكتاب معرفة مضمون الإجازة) ، وفي « ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد » (٢١٩/١) ترجمة لمحمد بن سعد الله المذكور قال فيها التقي الفاسي : (أنه سمع علىٰ أحمد بن عبد الدائم المقدسي الحنبلي « ت ٦٦٨ هـ » وحدَّث ببعضه عنه) ، فلعلَّ للأب وابنه علاقة بتلميذ السهروردي ، وربما يكون الأب هو التلميذ ذاته .

والصَّبرُ على الوَحدةِ ومُعانقَةُ العِبادةِ ومُلازمَةُ مَوضِعٍ واحدٍ . . يجمعُ كلَّ خيرٍ ، ويَستَعِيذُ باللهِ مِنْ شَرِّ كلِّ جَليسٍ ويُعِيذُهُ باللهِ مِنْ شَرِّ نفسِهِ ؛ فكمْ مِنْ أخٍ صالحٍ أفسدَ أخاً وانفَسدَ بهِ ؛ لما يَتداخَلُ صُحبَتَهما مِنْ دقائقِ التَّزيُّنِ ، ويَجذِبُ ذٰلكَ إلىٰ ما وراءَ ذٰلكَ ، فافهم .

واستَعِذ باللهِ مِنْ آفاتِ أوقاتِ الصَّفاءِ ؛ فإنَّ لها آفاتٍ مِنَ العُجْبِ والطُّغيانِ والإفراطِ في البَسطِ ، والنُّزوعِ إلى الشَّطْحِ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، وما استَوجَبَ القَبضَ الإفراطُ والبَسطُ ، ولَوِ اعتدلَ مِزاجُ القلبِ . . لدامَ الرَّوحُ والأُنسُ ، ولمْ يَنغَلِقْ بابُ المزيدِ ، فافهَم ذٰلك .

وتأدَّب بآدابِ الشَّرعِ ، قَليلِها وكثيرِها ؛ مِنَ المستَحَبِّ والمندوبِ ؛ كغُسلِ الجُمُعةِ ، والبُكورِ إلى الجامِعِ ، وقِسْ علىٰ ذٰلكَ غيرَهُ ، وكغَسلِ اليدِ قبل الطَّعامِ وبعدَهُ ، وغيرِ ذٰلكَ .

ومتَىٰ هَمَمتَ بمُطالَعةِ شيءٍ مِنَ العلمِ أو كلامِ المشايخِ . . فقدِّمْ علىٰ ذٰلكَ الِالتجاءَ ، ولا تَغتَرَّ بصُورِ الأشياءِ ؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ لا يَتولَّاهُ اللهُ للعبدِ يصيرُ داءً مِنْ حيثُ هو دواءٌ ؛ حتَّىٰ يكونَ في الأشياءِ كلِّها باللهِ .

والحمد لله رب العالمين

وصيَّةٌ أخرىٰ :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] ، للهِ تعالىٰ عبادٌ اجتباهُم مِنْ غيرِ سابقةِ كَسْبٍ ؛ وهمُ المجذُوبونَ ، رفعَ اللهُ الحِجابَ عن قلوبِهِم بنُورِ اليَقينِ ، فهُم ناظِرونَ بأعيُنِ قلوبِهِم إلىٰ جَلالِ اللهِ تعالىٰ بأرواحٍ عاكِفةٍ على الحضرةِ الإلٰهيَّةِ ، خُصُّوا بمَحبَّةٍ خاصَّةٍ بما وَصلَ إلىٰ أرواحِهِم مِنْ نُورِ الذَّاتِ ، فهم وإنْ كانُوا سُكوتاً لا يَزالونَ ذاكِرينَ ، وهٰؤلاءِ عَزَفَتْ نُفوسُهُم عنِ الدُّنيا ، وانطلَقَتْ قلوبُهُم مِنْ أَسْرِ الهوَىٰ ، وانكمَشَتْ عُروقُ نُفوسِهِمُ الضَّاربةُ في العالَمِ السُّفلِيِّ ؛ الجاذِبةُ إلى الحُظوظِ الفانِيَةِ مِنْ طَلَبِ فُضولِ الجاهِ والمالِ ، وطلبِ التَّرفُّعِ والمنافَسَةِ ، وبَصائِرُهُم ناظرةٌ إلى الآخِرةِ ، وأرواحُهُم مُتطلِّعةٌ إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ ، فهُم بجُزءٍ منهُم في الدُّنيا ، وبتِسعَةِ أجزائِهِم في الآخرةِ عندَ اللهِ ، والجُزءُ الَّذي لهم في الدُّنيا مَعمُورٌ بظاهرِ العلمِ وباطنِهِ ، مَحفوفٌ بنُورِ العِنايَةِ ؛ تَتلقَّفُ قضَايا جِبلَّاتِهِمُ الأمدادُ الإلٰهيَّةُ ، وتَرِدُ علىٰ قلوبِهِمُ التَّعريفاتُ الرَّبانيَّةُ في كُلِّيَّاتِ أمورِهِم وجُزئيَّاتِها ؛ مُكالمةُ اللهِ إيَّاهُم في نَومِهِم ويَقظتِهِم .

فهُمُ العُلماءُ الرَّاسِخونَ ؛ يتلُونَ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُه ، ويُصحِّحونَ مَقامَ الإقتداءِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ومهما وُفِّقوا لحُسنِ الإقتداءِ . . يَصِحُّ لهُم طُرُقُ الإهتداءِ ؛ فكلُّ الطُّرُقِ مَسدودةٌ سِوىٰ طريقِ الإهتداءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . يُعرِّفُهُ تَصحِيحَ البِداياتِ ؛ ليَصِلَ بذٰلكَ إلى النِّهاياتِ .

وقَطَعَ الخلقَ عنِ اللهِ مَحبَّةُ هٰذه الفانيَةِ ؛ الَّتي تَشبَّثَتْ بها النُّفوسُ الَّتي ما كمُلَ وضعُها واستِعدادُها ، وتفاوَتَ النَّاسُ بالرُّكونِ إلى الفانِي واستِدبارِ الباقي ؛

---

(١) سورة الشورىٰ : (١٣) .

لِاختلَافِ أوضاعِهم واستِعدادِهِم ، ومَنْ كمُلَ استِعدادُهُ . . لا يَصلُحُ إلَّا للهِ ، ولا يَصلُحُ لخدمةِ الدُّنيا ، ويُوفَّقُ لحُسنِ المعامَلَةِ ويُحبَّبُ إليهِ الخَلْوةُ والوَحدَةُ ؛ حتَّىٰ يَتربَّىٰ قلبُهُ بينَ يَدَيِ الحقِّ ؛ لطولِ مُعاملَتِهِ ربَّهُ بالصِّدقِ والإخلاصِ ، فإذا استَحكَمَتْ أصولُهُ وكمُلَتْ تَربيةُ باطنِهِ . . يَفِيضُ وِعاؤُهُ ويُرَدُّ إلى الخلقِ ؛ ليُرشِدَهُم ويَهدِيَهُم .

وهٰذا المنصِبُ هو الَّذي لا يَنزِلُ علىٰ غيرِهِ العُلماءُ الرَّاسِخونَ ، وهو المُلكُ المتَّصِلُ بالمُلكِ الأبَدِيِّ ، والممَكَّنُونَ في الدُّنيا بالمُلكِ والمِلكِ مع اعوجاجٍ . . لا يَفُونَ بشَرطِ ظاهرِ العلمِ وباطنِهِ ؛ سُلِبوا المُلكَ الأبدِيَّ ، وشُغِلوا بظَاهرِ المِلكِ ، وجُعِلوا آلةً يَمشِي بطريقِهِم القَوانِينُ الحُكمِيَّةُ الموكُولَةُ بعالَمِ الشَّهادةِ ؛ فقَلَّ حَظُّهُم ونَصِيبُهُم ، وأُلبِسَتْ بواطِنُهُم مَلابِسَ الفَقرِ ، وزُخرِفَتْ ظَواهِرُهُم بمَلابِسِ صُوَرِ الغِنَىٰ ، أجسادٌ بِلا أرواحٍ ، وقلوبٌ مُشاكِلَةٌ للقَوالِبِ ، فَربَّما طَرقَ سَمْعَ بَعضِهِم هاتفُ العِنايَةِ ؛ فأيقَظَ باطِنَهُ مِنْ رَقدَةِ الغَفلَةِ ، وأزعجَهُ مِنْ مَقارِّ هواهُ ، وعَرَّفَ ماهِيَّةَ الدُّنيا ؛ فهَجَمَ بِصِدقِهِ علىٰ تَخرِيبِ العاداتِ ، وغمَّضَ عَينَ عَقلِهِ عنِ التَّقيُّدِ بالخَلْقِ ، وأخذَ مِنَ الخَلْقِ فِراراً ، واتَّخذَ عندَ اللهِ عهداً ، وهٰذا أعزُّ في الخَلقِ مِنَ الكِبريتِ الأحمرِ .

ومَن قصَّر مِنَ الموفَّقِينَ عن شَأوِ هٰذا . . أقبَلَ علىٰ حُسْنِ سِياسَةِ النَّفسِ ورِياضَةِ أخلَاقِها .

فأوَّلُ ذٰلكَ : أن يُطالِبَ نفسَهُ بالعدلِ فِيما استَرعاهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ يُطالِبُ نفسَهُ بأنْ يَمكُثَ نهارَهُ أجمَعَ يُقَيِّدُ أقوالَهُ وأفعالَهُ ؛ حتَّىٰ لا يَكتُبَ عليهِ صاحِبُ الشِّمالِ شيئاً ، وهٰذا مُمكِنٌ أنْ يَفعَلَهُ يوماً واحداً ، وما أمكنَ فِعلُهُ يوماً . . أمكنَ شهراً ودَهراً ؛ وإنَّما قَلَّتِ الإراداتُ وفَترَتِ العَزائِمُ .

ثمَّ بعدَ هٰذا يُطالِبُ نفسَهُ بفِعلِ الرِّضا ، وطَريقُ ذٰلكَ : أن يَشغَلَ الوقتَ بالتَّنفُّلِ بالصَّلاةِ ، فإذا سَئِمَتِ النَّفسُ . . يُصانِعُها ؛ بأن يَحُطَّها مِنَ الصَّلاةِ إلى

التِّلاوةِ وإلى الذِّكرِ ، فإذا سَئِمَتِ الذِّكرَ . . يَترُكُ ذِكرَ اللِّسانِ ، ويُراقِبُ اللهَ بباطنِهِ مِنْ غيرِ حَركةِ اللِّسانِ ، فإذا تَملمَلَت وسَئِمَت . . ينامُ ، فإذا استراحَ بالنَّومِ . . يعودُ جديداً ؛ فيَنتَبِهُ مِنَ النَّومِ ويُسبِغُ الوُضوءَ ، ويعودُ إلى القانونِ المذكورِ ، ويَستَعِينُ علىٰ وَقتِه بقِيامِ شيءٍ مِنَ اللَّيلِ ؛ فإنَّهُ قلَّ مَنِ استَقامَ أمرُهُ مع اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ حظٍّ مِنَ اللَّيلِ .

والحمد لله وحده

وصِيَّةٌ أُخرىٰ لرَشيدِ الدِّينِ عمرَ الفَرغانيِّ [1]

مَنْ أحظَاهُ اللهُ بصِدقِ اليَقِينِ ، واتَّخذَ مَقاماً مَكِيناً مِن مَقاماتِ المتَّقِينَ . . يُحِبُّ اللهُ تعالىٰ منهُ دَوامَ التَّبتُّلِ إليهِ ، ودوامَ الإقبالِ عليهِ ، ومتَىٰ أصغَىٰ إلى النَّفسِ الدَّاعيَةِ إلى البَطالَةِ ، الميَّالَةِ إلىٰ مُخالَطةِ الخَلقِ . . يُعاقَبُ بِهِم بتَسلُّطِ وتَشعُّثِ باطنٍ ، وتَردُّدِ رأيٍ جالِبٍ للتَّفرقةِ ، فيَنبَغِي لهُ أنْ يَأخُذَ مِنَ الخَلقِ جانِباً مِنْ سَليمِهِم وسَقِيمِهِم ، إلَّا مَنْ يَستَفِيدُ منهُ ، ويَكتَسِبُ بصُحبَتِهِ زِيادةً في الزُّهدِ ، ويَتفَطَّنُ بطَريقِهِ كَوامِنَ آفاتِ النَّفسِ ، أو مَنْ سوفَ يَبعثُهُ اللهُ تعالىٰ إليهِ عندَ ارتِواءِ قلبِهِ مِنْ مِنَحِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فتَشَمُّ أرواحُ الصَّادِقينَ منهُ عَرْفَ القُربِ ؛ فيَتطفَّلونَ عليهِ ، ويَميلونَ إليهِ ؛ فيَبتَلِيهِم مِنْ صَفوِ صُحبَتِهِ ما يُسَكِّنُ لهَفَ إرادتِهِم ، ويُكسِبُهُم ما يَتلقَّحُ بهِ بواطنُهُم مِنْ غيرِ إسرافٍ وتَقتِيرٍ .

والإسرافُ في ذٰلك : الاِستِرسالُ في الصُّحبَةِ إلىٰ حَدٍّ يَنزِعُ إلىٰ مُؤانَساتِ النُّفوسِ .

والتَّقتِيرُ فيهِ : الاِمتِناعُ مِنَ الصُّحبَةِ مع العِلمِ بنَفعِ الطَّالبِ ؛ حِرصاً على الحظِّ الخاصِّ لنَفْسِهِ .

فالصِّدِّيقونَ لكثرةِ شَغَفِهِم وقِلَّةِ صَبرِهِم عن مَولاهُم . . يَستوحِشونَ مِن مُتَوَهِّماتِ مُوجَباتِ التَّفرِقَةِ .

والعملُ الدَّائمُ المشارُ إليهِ . . دوامُ إقبالِ القلبِ ، وإحكامُ علمِ الحالِ وعلمِ القِيامِ ، والتَّفطُّنُ للطَّوارِئِ والعَوارِضِ ، والحُكمُ فيها بالعدلِ ؛ بِما شَهِدَ بِصِحَّتِهِ

---

(١) لعله : عمر بن محمد بن عمر الفرغاني الحنفي (ت ٦٣٢ هـ) أحد تلاميذه . انظر في ترجمته « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار الورقة (١١٩/أ) من نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم (٢١٣١) ، و« إنباه الرواة » (٣٣١/٢ ـ ٣٣٢) ، و« تاريخ الإسلام » (٨١/١٤) .

ظاهرُ العلمِ وباطنُهُ ، ومع هٰذا العملِ إذا تَزيَّنَ القلبُ بحِليَةِ الصَّلاةِ والتِّلاوةِ والذِّكرِ . . كانَ أتمَّ وأبلَغَ في المقصودِ .

ومِنَ المهِمِّ رِعايةُ الِاعتدالِ في النَّومِ والأكلِ ، والتَّقليلِ مِنَ الشَّهواتِ ، والتَّخلُّصِ مِنْ تَبِعاتِ الوجودِ الغيبيِّ بالمحاسَبةِ ، ثمَّ التَّخلُّصِ مِنْ تَبِعاتِ الوجودِ الذِّهنيِّ بالمراقبَةِ ، ثمَّ مَحوُ وجودِ ذِهنيٍّ بالتَّغيُّبِ عنهُ في مَطاوِي الغَيبِ إلىٰ أنْ يعُمَّ عينُ الوجودِ أجزاءَ الغَيبِ ، ثمَّ يَعُمَّ أجزاءَ العينِ وتتَشَابَهَ القوالبُ ؛ الغيبُ والعينُ لرُوحِ الشُّهودِ .

ومَنْ تَرامىٰ سَبيلَ التَّحقُّقِ بهٰذه المِنَحِ الخاصَّةِ . . فليَتَّخِذِ المنزِلَ قَبراً ، ويَغسِلْ يدَهُ مِنَ الدُّنيا وأهلِها ، ويُليِّنْ لسانَهُ لتلاوةِ كلامِ اللهِ العزيزِ ، ويُطهِّرْ قلبَهُ وسَمعَهُ وبَصرَهُ ، ويَتدَبَّرْ للجَمعِيَّةِ ، وعلىٰ هٰذا يَعقِدُ مع اللهِ تعالىٰ عَقدَ العَهدِ ، ولا يَحُلُّ عَقدَهُ حَرَكَةُ نفسِهِ ؛ بِطَيشِها وقِلَّةِ صَبرِها وتَملمُلِها ونُزوعِها إلىٰ مُخالَفةِ حُكمِ الوقتِ .

وحكمُ الوقتِ ما هو أَولَىٰ بهِ وأسعَدُ عندَهُ واضِحٌ فيهِ ، يُشاهِدُ العِلمَ ونُورَ[1] البَصيرَةِ الَّذي يَخرِقُ شغافَ الشُّبهَةِ ، ويَدُلُّ علىٰ واضِحِ البُرهانِ ، ورُكوبُ الشُّبهَةِ لِعَوَرٍ في البَصِيرَةِ ، وفُتورٍ في العَزيمَةِ ، ويكونُ هوىً يَطمِسُ نورَ الإيمانِ .

والله تعالىٰ أعلم ، وله الحمد

---

(١) في حاشيةِ الأصل : (لعلَّه : بنورِ ، فلينظر) ، وهو أنسبُ للسِّياقِ ، والله أعلم .

وصيَّةٌ أخرىٰ :

قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1] ، جاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَستوصِيهِ ، فقالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَٱبْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ »[2] ؛ ففِي وصيَّةِ اللهِ تعالىٰ ووَصيَّةِ رسولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كِفايةٌ لكلِّ عاقلٍ مُستَبصِرٍ .

ولا يَقدِرُ العبدُ على القِيامِ بهٰذه الوصايا إلَّا بِقِصَرِ الأملِ ، وإدامةِ ذكرِ الموتِ ؛ فذِكرُ الموتِ يَفتَحُ بابَ القلبِ إلى الآخرةِ ، ويَحُثُّ على التَّشمِيرِ للمَصالِحِ الجامعةِ ؛ لمنافعِ العاجلِ والآجِلِ .

ومِن جُمَلةِ المهامِّ النَّافعةِ : مُجالَسَةُ أهلِ الصَّلاحِ ، ومُجانَبةُ أهلِ الفَسادِ ، ومُلازَمةُ الوَحدةِ إذا لَمْ يَجِد قَرِيناً صالحاً ، ثمَّ في الخَلْوَةِ والوَحدةِ يَجتَنِبُ البَطالةَ ؛ فإنَّها تُمِيتُ القلبَ ؛ بلْ تكونُ أوقاتُهُ مَعمورَةً بما يَتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ويَتيقَّنُ أنَّ كلَّ ساعةٍ تَخلُو عن ذِكرِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليهِ بنوعٍ مِنَ العِبادةِ . . تكونُ حَسرَةً يومَ القيامةِ .

فمِنَ القُرَبِ السَّنِيَّةِ : الصَّلاةُ ، ثمَّ تِلاوةُ القرآنِ ، ثمَّ الذِّكرُ بالقلبِ واللِّسانِ ، ثمَّ الذِّكرُ بالقلبِ مِنْ غيرِ لسانٍ ، ثمَّ المراقَبةُ ؛ والمراقبَةُ : أنْ يُلزِمَ قلبَهُ العِلمَ بأنَّ اللهَ ناظرٌ إليهِ ، ومُطَّلِعٌ علىٰ ما يُجِنُّهُ ضَمِيرُهُ ، ومهما خلَا عن هٰذهِ الأقسامِ . . فلْيَنَمْ ؛ ففِي النَّومِ السَّلامةُ .

وينبَغِي أنْ يكونَ أبداً على الطَّهارةِ ، ومَهما أحدثَ . . يَتطَهَّرُ ، ويَجتَهِدَ أن

---

(١) سورة النساء : (١٣١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

يَستَقبِلَ القِبلةَ في كلِّ مَجلِسٍ ، ويُصَوِّرَ في نفسِهِ أنَّهُ جالسٌ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ وبينَ يدَيْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حتَّىٰ يُلازِمَ السَّكِينةَ والوَقارَ في القولِ والفعلِ ، ويَحتَمِلَ أذَى الخلقِ ، ولا يُقابِلَ المسيءَ علىٰ إساءتِهِ ، ويَستَغفِرَ لكلِّ مُسيءٍ ، ولا يُعجَبَ بنفسِهِ وبعِلمِهِ وعَمَلِهِ ، ويَنظُرَ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الحَقارةِ ، وإلى المسلمينَ كافَّةً بعينِ الإحترامِ والتَّعظيمِ .

ويَنبَغِي أنْ يكونَ لهُ حظٌّ مِنْ قِيامِ اللَّيلِ ، وقِيامُ أوسَطِ اللَّيلِ أفضلُ ، ويُواصِلَ بينَ العِشاءَينِ إذا أمكنَهُ ، وبينَ الظُّهرِ والعصرِ إذا أمكنَ ذٰلكَ ، ويُحافِظَ علىٰ صلاةِ الضُّحىٰ ، وغُسلِ الجُمُعةِ ، والنَّومِ على الطَّهارةِ ، ويُلازِمَ البُكورَ إلى الجامعِ يومَ الجُمُعةِ ، ويَجعلَ هٰذا اليومَ للآخرةِ خاصَّةً ، لا يَشوبُهُ بشيءٍ مِنْ أمرِ الدُّنيا ، ويَتصَدَّقَ كلَّ يومٍ بصَدقةٍ مهما كانَ قلَّ أو كثُرَ ، ولا يُكثِرَ الضَّحِكَ ، ويَجتَهِدَ في خِفَّةِ المعِدةِ أبداً ، وليكُنْ لهُ حَظٌّ مِنْ صومِ النَّافلةِ ؛ فليصُمِ الإثنينَ والخميسَ ، وإنْ زادَ علىٰ ذٰلكَ . . فحسَنٌ ، وإلَّا . . فليصُم أيَّامَ البِيضِ مِنْ كلِّ شهرٍ ، وهٰذا أقلُّ الأقسامِ .

ويَضبِطُ الجوارحَ كلَّها عن مُخالفَةِ الشَّرعِ ، خاصَّةً العينَ واللِّسانَ ، العينَ واللِّسانَ ، العينَ واللِّسانَ[1] ، يَحفَظُهُما عنِ النَّظرِ إلىٰ ما لا يَجوزُ ، والغِيبةِ ؛ فهو أكثَرُ ما يُبتَلَىٰ بهِ الإنسانُ ، وفي التَّردُّدِ في الطُّرقِ يكونُ مُلازِماً بقلبِهِ للذِّكرِ ، مُقِيماً على الذِّكرِ بالباطنِ ، لا يَخطُو ولا يَسعَىٰ غافِلاً .

ولا يَقدِرُ على الوَفاءِ بما ذكرتُ إلَّا الزَّاهدونَ في الدُّنيا ، فليَسأَلِ اللهَ تعالىٰ ذٰلكَ بدوامِ التَّضرُّعِ والإستكانَةِ ، ويَعلَمْ أنَّ للهِ تعالىٰ عِباداً رُزِقُوا ذٰلكَ ، فصارَ همُّهم همّاً واحداً ، وأماتُوا غدَهُم وأمسَهُم ؛ لشُغلِهِم بوَقتِهِم ، فليَترامَ إلىٰ ذٰلكَ ، ولا يَقنَعْ بالدُّونِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يُحِبُّ معاليَ الأمورِ .

---

(١) يكرِّرُ السُّهروردِيُّ لفظي (العينَ واللِّسانَ) لخطورتِهما ، وللتَّأكيدِ عن أنَّهما يُوردانِ الموارِدَ ، وأنَّهما أصلُ كلِّ شرٍّ ؛ إذا أُطلِقا في المحرَّماتِ واستُعمِلا فيما لا يَنبغِي .

وليكُن في الصَّلاةِ حافِظاً للحالِ ؛ وحِفظُ الحالِ : أنْ يكونَ في كلِّ كَلِمةٍ يقُولُها بلسانِه قائماً وراكعاً وساجداً ، يعلَمُ معناها بقلبِهِ ؛ ليكونَ المعنىٰ شاغِلاً للباطنِ مكانَ الوَسوسَةِ ، وهٰذا أصلٌ كبيرٌ فليَحفَظْهُ ، وهٰكذا يَنبَغِي أنْ يَفعَلَ في التِّلاوةِ والأذكارِ .

والله الموفق والمعين

وصيَّةٌ أخرىٰ :

تيقَّظ أيُّها العاقلُ لمصالحِ دِينِكَ ، واستَنكِفْ لنَفسِكَ أنْ تكونَ في زُمرةِ الجاهلينَ .

واعلمْ بأنَّ اللهَ سبحانَهُ مُطالِبٌ لكَ بالقِيامِ بحقيقةِ العُبوديَّةِ ، ولمْ يَخلُقْكَ إلَّا لذٰلكَ ، عَلِمَ مَنْ عَلِمَ ، وجَهِلَ مَنْ جَهِلَ .

وفي العُبوديَّةِ حقٌّ وحقيقةٌ ، ورُخصةٌ وعزيمةٌ ، فالحقُّ : ظاهرُ الرُّخصَةِ ، والحقيقةُ : باطنُ العزيمةِ ، فالرُّخصةُ : قيامٌ بظاهرِ الشَّريعةِ ، والعزيمةُ : قيامٌ بحقِّ الحقيقةِ ، فمَنْ زَكَتْ نفسُهُ وعَلَتْ هِمَّتُه . . يَمتَطِي غَوارِبَ الحقيقةِ ، ويُشَمِّرُ عن ساقِ الجِدِّ في تَحقيقِ العزيمةِ ، ومَن تَقاصَرَ عن إدراكِ شَأْوِ العزيمةِ . . فلَا أقلَّ مِنْ أنْ يَتحصَّنَ بالرُّخصةِ وإلَّا . . خاضَ غَمَراتِ الوبالِ .

فكنْ أيُّها العاقِلُ صاحبَ عزيمةٍ ؛ فإنَّكَ إنْ زلَلْتَ . . وقَعتَ في الرُّخصةِ ، ولا تكُنْ صاحبَ رُخصةٍ ؛ فإنَّكَ إنْ زلَلْتَ . . وقعتَ في الزَّلَّةِ .

فاسمَعِ الآنَ شرحَ الرُّخصةِ والعزيمةِ :

فأمَّا الرُّخصةُ : فهي قِيامٌ بأوامرِ الشَّرعِ ، والتَّضيُّقُ فيما ضيَّقَ ، والتَّوسُّعُ فيما وسَّعَ وأباحَ ، وفي هٰذا لو كانَ لكَ مِنْ حَلالِ الدُّنيا مهما كانَ . . فما عليكَ وبالٌ ، ولا يَضُرُّكَ التَّوسُّعُ في القولِ والفعلِ ؛ ما لم يَتَّسِمِ القولُ والفعلُ بسِمَةِ المعصيَةِ والمخالفَةِ في ظاهرِ الشَّرعِ ، ولا بدَّ لكَ في القَناعةِ بهٰذا الحظِّ مِنْ ضَبطِ الجوارحِ عنِ القولِ الحرامِ ، والنَّظرِ الحرامِ ، والطَّعامِ الحرامِ ، واللِّباسِ الحرامِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِن ظاهرِ الأحكامِ ؛ فكلُّ ذٰلكَ مِنْ لوازمِ الإسلامِ وتَمامِهِ وكَمالِهِ ؛ فلَا تكُنْ ممَّن قلَّ حظُّه مِنْ هٰذا القَدْرِ .

وإنْ كنتَ ممَّنْ يَتطاوَلُ أمَلُهُ ، وتَعلُو هِمَّتُه إلى العزيمةِ ، وأنْ تكونَ مِنْ أربابِ الحقيقةِ . . فلا بُدَّ لكَ مِنْ أربعةِ أشياءَ هي الأساسُ مع أشياءَ كثيرةٍ .

فأمَّا الأربعةُ : فقِلَّةُ الطَّعامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، وقِلَّةُ الكلامِ والاِعتزالُ عنِ النَّاسِ .

وشرحُ قِلَّةِ الطَّعامِ : أنْ يكونَ لكَ شِبَعٌ مُعتَدِلٌ بعدَ الجُوعِ ، والاِعتدالُ في الشِّبَعِ : أنَّكَ تَترُكُ الطَّعامَ وأنتَ بعدُ تَشتهِيهِ .

وشرحُ قِلَّةِ المنامِ : أنَّكَ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ تنامُ الثُّلُثَ ؛ وهو ثَمانُ ساعاتٍ ؛ فبَعضُ ذٰلكَ بالنَّهارِ قَيلولةٌ للِاستعانةِ علىٰ قِيامِ اللَّيلِ ، وبعضُ ذٰلك باللَّيلِ في طَرَفَيهِ ، وإحياءُ أوسَطِه أفضلُ ، وأمَّا إحياءُ أحدِ طَرَفَيهِ أو كليهِما مُوزَّعاً على الطَّرفَينِ كيفَ أمكنَ . . فحسَنٌ .

وقِلَّةُ الكلامِ شرحُهُ : أنْ تُمسِكَ عنِ القولِ فيما لا يَعنِي ، وحَدُّ ذٰلكَ : أنَّكَ لا تَتكلَّمُ إلَّا إذا توقَّعتَ بكلامِكَ نَفعاً دُنيَوِياً أو أخروياً ، وأنَّكَ إنْ سَكَتَّ . . يَفوتُكَ نفعٌ عاجلٌ أو آجلٌ .

وشرحُ الاِعتزالِ عنِ النَّاسِ : أنَّك تَقنَعُ مِنْ بَركَةِ مُخالَطةِ المسلمينَ بالجُمُعةِ والجماعةِ ، وإلَّا . . فِيما يعودُ نفعُهُ إليكَ عاجِلاً لضَرورةِ مَكسَبٍ يضُرُّكَ فَواتُهُ ؛ مُقيِّداً ذٰلكَ بالقناعةِ وتركِ الاِستكثارِ مِنَ الدُّنيا .

واعلمْ بأنَّ طالبَ العزيمةِ لا بدَّ لهُ مِنَ الزُّهدِ في حلالِ الدُّنيا ؛ ليَصِيرَ همُّه همّاً واحِداً ، ويَتفَرَّغَ باطنُهُ ليكونَ مُلازِماً لحفظِ الحالِ ظاهراً وباطناً .

وحِفظُ الحالِ : بضَبطِ الظَّاهرِ والباطنِ علىٰ قانونِ العلمِ الظَّاهرِ والباطنِ ؛ وذٰلكَ بأنْ يَشهَدَ لهُ العِلمُ بالوفاءِ بحقيقةِ العُبوديَّةِ ، وهٰذا المقامُ عَسِرُ المنَالِ ؛ لا يكادُ يَفِي بهِ إلَّا كلُّ مُتحقِّقٍ بالزُّهدِ والتَّقوىٰ ، وإدامَةِ فعلِ الرِّضا ظاهِراً وباطناً ، ومثلُ هٰذا العبدِ أعزُّ مِنَ الكِبريتِ الأحمرِ ، وإذا تَحقَّقَ العبدُ بهٰذا المقامِ . . يصيرُ إماماً للمُتَّقينَ ، وعَلَماً للسَّالِكينَ ، ويكونُ وِعاءُ قلبِهِ فيَّاضاً ؛ تُقتَبسُ منهُ الأحوالُ .

وبابُ كلِّ خيرٍ ومَدخلُهُ حُسْنُ الإقتداءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

والآنَ أوجِزُ لكَ الوَصِيَّةَ ؛ فطالِعْ ما كتبتُ ، وتفَكَّر فيهِ ، وسَلِ اللهَ تعالىٰ صَفاءَ الفَهمِ والتَّوفِيقَ .

والله الموفق والمعين

ومِنْ كلامِهِ رحِمَهُ اللهُ قالَ :

سألَني بعضُ الإخوانِ عن قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَٱتَّقُوا ٱللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي ٱلطَّلَبِ »[1] .

فقلتُ ، واللهُ تعالىٰ أعلَمُ ، ومنهُ سبحانَهُ أسألُ التَّوفيقَ والقولَ السَّديدَ :

إنَّ النَّفْثَ رُتبةٌ خاصَّةٌ غيرُ رُتبةِ الوَحيِ الَّذي يأتِي بهِ جِبريلُ ، وغيرُ رُتبةِ الإلهامِ الَّذي يكونُ مِنْ غيرِ واسطةِ جبريلَ ، ولكلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذه الرُّتَبِ الثَّلاثِ مَحَلٌّ مَخصوصٌ مِنْ باطنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فمَحلُّ الوَحيِ الَّذي سيأتي بهِ جبريلُ ومَوردُهُ . . القلبُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] ، ثمَّ قالَ تِبياناً لمَحَلِّ الإنزالِ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[3] .

[الرتبة الأولىٰ] : فالوحيُ الَّذي يَنزِلُ بهِ جِبريلُ على القلبِ النَّبويِّ : يَرى النَّبيُّ جِبريلَ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم عندَ الإلقاءِ ، ويَسمَعُ منهُ بعِبارةٍ مَخصوصَةٍ مَفهومَةٍ ، وهٰذا النَّوعُ مُختَصٌّ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم وسلَامُهُ ، لا يُشارِكُهُم فيهِ غيرُهُم ، وإنَّما كانَ مَحَلَّهُ القلبُ ؛ لأنَّ القلبَ لهُ وجهٌ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، ولهُ وجهٌ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والملكوتِ ، فبِوجهِهِ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والملكوتِ مُجانِسُ الرُّوحِ ، وبوجهِهِ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ مُجانِسُ النَّفسِ ، ولمَّا كانَ الكلامُ القَديمُ الأزليُّ الَّذي نزلَ بهِ جِبريلُ . . متَعلِّقاً بمصالحِ

---

(١) أخرجه هنَّاد السَّري في « الزهد » (٤٩٤) والحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وأخرجه البزار في « المسند » (٢٩١٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) سورة النحل : (١٠٢) .

(٣) سورة الشعراء : (١٩٣ ـ ١٩٥) .

عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ مِنْ بَيانِ الحلالِ والحرامِ ، والحدودِ والأحكامِ ، وسائرِ قواعدِ شرائعِ الإسلامِ ؛ سياسةً للخلقِ وتأديباً لنُفوسِهم ، وتَقييداً لِطباعِهم ، وحِراسةً لأموالِهم وأنفُسِهم ، وكانَ حَبلُ اللهِ المتينُ كما وردَ في الخبرِ : « طرَفٌ بيَدِهِ وطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ »[1] ، فكانَ ذا طرَفينِ ، فلَزِمَ أنْ يكونَ مَوردُهُ ذا وجهينِ ؛ فيَلقاهُ قلبُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بوجهِهِ الَّذي يُجانِسُ الرُّوحَ ، ويُلقِيهِ إلى الخَلقِ ويُبلِّغُهُ بالوجهِ الَّذي يُجانِسُ النَّفسَ ، إلىٰ لسانِ تُرجُمانِ قلبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2]

ولمَّا كانتِ النَّفسُ الطَّاهرةُ النَّبويَّةُ جانَستِ النُّفوسَ . . حصَلَتْ فائدةُ التَّبليغِ ؛ إذْ لوْ لمْ تكُنِ المجانَسةُ . . تَعذَّرَتِ الفائدةُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[3] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[4] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[5] ، نبَّهَ الحقُّ سبحانَهُ علىٰ أنَّ الجِنسيَّةَ كانَتْ مِنَ الحِكمَةِ الإلٰهيَّةِ ، ولمَّا كانَتِ الجِنسيَّةُ مُفيدةً في البَلاغِ والرِّسالةِ . . كانَتْ مُفيدةً أيضاً في جِنسيَّةِ أحدِ وجهَيِ القلبِ مع النَّفسِ ؛ فالقلبُ مُبلِّغٌ إلى النَّفسِ النَّبويِّ بوجهِهِ الَّذي يليهِ ، ونفسُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُبلِّغةٌ إلى الأمَّةِ رحمةً مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فاتَّضحَ بهٰذا الكلامِ حقيقةُ الوحيِ الَّذي كان يأتِي به جِبريلُ ، ووجهُ اختِصاصِه بالقلبِ ، والحِكمَةُ في ذٰلك .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المُصنَّف » (٣٠٦٢٨) ، وابن حبان في « الصحيح » (١٢٢) من حديث سيدنا أبي شُريح الخُزاعيِّ رضي الله عنه .

(٢) سورة المائدة : (٦٧) .

(٣) سورة التوبة : (١٢٨) .

(٤) سورة الكهف : (١١٠) .

(٥) سورة الأنعام : (٩) .

وأمَّا الرُّتبةُ الثَّانيةُ ؛ وهو الإلهامُ : فهو وحيٌ أيضاً ، غيرَ أنَّهُ يُشارِكُ فيهِ الأنبياءَ غيرُهُم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[2] ، فهٰذا الوحيُ مُجرَّدُ الإلهامِ ، ثمَّ إنَّ مِنَ الإلهامِ علوماً تَحدُثُ في النُّفوسِ الزَّكيَّةِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ مِنْ أُمَّتِي لَمُحَدَّثِينَ وَمُكَلَّمِينَ ، وَإِنَّ عُمَرَ لَمِنْهُمْ »[3] ، وهي علومٌ لَدُنِيَّةٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[4] ، ويكونُ ذٰلك للأنبياءِ والأولياءِ والصَّالحينَ مِنَ المؤمِنينَ .

ومَحَلُّ هٰذا الجِنسِ ومَوردُهُ : النَّفسُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[5] ، فأخبرَ أنَّ النُّفوسَ مُلهَمةٌ ، فالنَّفسُ الملهَمةُ علوماً لدُنِيَّةً هي الَّتي تَبدَّلَتْ صِفَتُها واطمأنَّتْ ، أمَّارةٌ بالسُّوءِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[6] ، ثمَّ وصفَها بالطُّمأنِينَةِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾[7] ، فإذا اطمأنَّتْ .. صارَتْ مُلهَمةً ، وانتَقَشَ فيها علومٌ لَدُنِيَّةٌ إلهامِيَّةٌ .

ولمَّا كانَ في النَّفسِ مِنِ استِعدادِ التَّبدُّلِ والإنتزاعِ مِنْ صِفَتِها الأمَّارةِ .. قُلنا : إنَّ النَّفسَ إذا تَركَتْ هَواها .. قلَّتْ ظُلمتُها ؛ وذٰلكَ لأنَّ اللهَ تعالىٰ خَلقَ النَّفسَ أرضِيَّةً سُفلِيَّةً جَسدانِيَّةً ، والرُّوحَ عُلويَّةً رُوحانيَّةً سَماويَّةً ، فللرُّوحِ بَوضَعِ جِبلَّتِها نورٌ يَسرِي ، وللنَّفسِ بِوضَعِ جِبلَّتِها ظُلمَةٌ تُعْدِي ، فإذا كانَتِ النَّفسُ أمَّارةً بالسُّوءِ .. تتَصاعَدُ منها ظُلمَةٌ تَلتَحِقُ بالرُّوحِ فتُقيِّدُهُ ؛ فلَا يَسرِي نُورُها ؛

---

(١) سورة القصص : (٧) .

(٢) سورة النحل : (٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بمعناه .

(٤) سورة الكهف : (٦٥) .

(٥) سورة الشمس : (٧ ـ ٨) .

(٦) سورة يوسف (٥٣) .

(٧) سورة الفجر : (٢٧) .

لتَقيُّدِها بِظُلمَةِ النَّفسِ ، فإذا تزَكَّتِ النَّفسُ وأقبَلَتْ على اللهِ بأداءِ حقِّ العُبوديَّةِ . . نَقِلُّ ظُلمَتُها ، فيَنطَلِقُ الرُّوحُ مِنْ وَثاقِها ؛ فيَسري حينئذٍ نورُهُ حتَّىٰ يَنعَكِسَ على القلبِ ، فيُجانِسُ القلبُ الرُّوحَ ، ويَخرِقُ النُّورُ القلبَ ، ويَلتَحِقُ بالنَّفسِ ، فتَصيرُ النَّفسُ مُطمئِنَّةً ، وتَصيرُ بطَبعِ القلبِ مُجانِسةً لهُ ؛ لوصولِ نُورِ الرُّوحِ إليها ، يَتبدَّلُ بعضُ ما فيها مِنَ الحديثِ علوماً إلهاميَّةً .

وللنَّفسِ حديثٌ لا يَنقَطِعُ ؛ إذْ هي ناطقةٌ كما خلقَها بارئُها ، فإذا انعَكسَ عليها أنوارُ الرُّوحِ . . تَبدَّلَ بعضُ حديثِها علىٰ حالِهِ بحُكمِ قَضيَّةِ جِبلَّتِها ، فتَبيَّنَ بهٰذا الكلَامِ الرُّتبةُ الثَّانيةُ : وهو الإلهامُ ، وأنَّ مَحَلَّهُ النَّفسُ المطمئنَّةُ الملهَمةُ النَّاطِقةُ ، وهٰذا الجِنسُ لمْ تَتعلَّقْ بهِ المصالِحُ العامَّةُ مِنْ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ؛ بلْ تَختصُّ فائدتُهُ بصاحبِهِ دونَ غيرِهِ ؛ إذْ لمْ يكُنْ لهُ ثَمَرةُ السِّرايةِ إلى الغيرِ علىٰ طريقِ العُمومِ ، وإنْ كانَتْ لهُ فائدةٌ تتَعلَّقُ بالأغيارِ علىٰ وجهٍ خاصٍّ يطولُ شَرحُهُ .

وإنَّما لمْ تكُنْ لهُ ثَمَرةُ السِّرايةِ إلى الغَيرِ علىٰ طريقِ العمومِ مِنْ مَصالِحِ عالَمِ المُلكِ ؛ لكَونِ مَحَلِّهِ النَّفسَ ، وقُربِها إلى الأرضِ والعالَمِ السُّفليِّ ؛ بخِلافِ الرُّتبةِ الأُولىٰ : وهي الوحيُ الَّذي يأتي بهِ المَلَكُ المُلقِي ؛ لأنَّ مَحَلَّهُ القلبُ المجانِسُ للرُّوحِ الرُّوحانِيِّ العلويِّ ، وقدْ تقدَّمَ شرحُهُ[1] .

وأمَّا الرُّتبةُ الثَّالثةُ ـ وهو النَّفْثُ في الرُّوعِ ـ : وهٰذه لفظةٌ غَريبةٌ لمْ تَردْ في الألفاظِ النَّبويَّةِ إلَّا في هٰذا الخبرِ ، وما وردَتْ إلَّا ولها معنىً خاصٌّ غيرُ الرُّتبَتينِ السَّابِقتَينِ .

فأقولُ : هٰذه رُتبةٌ عزيزةٌ ورحمةٌ خاصَّةٌ ومَوهِبةٌ رُوحيَّةٌ تَردُ مِنَ اللهِ تعالىٰ على الرُّوحِ ؛ فيَزدادُ الرُّوحُ بها اتِّساعاً في المعارفِ والعلومِ والمشاهَدةِ ، وتَفيضُ على النَّفسِ والقلبِ مِنْ ذٰلكَ ، فعِندَ وُرودِ هٰذه الرَّحمةِ على الرُّوحِ يَزدادُ الرُّوحُ قُرباً ، ويزدادُ القلبُ عِلماً باللهِ ، وتَزدادُ النَّفسُ عِلماً بأجزاءِ الكائناتِ وإدراكِ المَغيباتِ ،

---

(١) انظر (ص ٤٠٠) .

فهٰذه الرَّحمةُ الخاصَّةُ تَرِدُ مِنَ اللهِ غيرَ مُسمَّاةٍ بالنَّفْثِ ، ويكونُ لأرواحِ الأولياءِ والصِّدِّيقِينَ منها نَصِيبٌ ، يُفِيدُهُم قُرباً وعِلماً وإحاطةً بأجزاءِ بعضِ الكائناتِ ، وإدراكَ شيءٍ مِنَ المَغِيباتِ .

وإنَّما يكونُ نَفْثاً في حقِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لأنَّها تتَّصِلُ بِرُوحِ القُدُسِ وتَرِدُ عليهِ كمَوجَةٍ تَرِدُ علىٰ بحرٍ ، فيكشفُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جِبريلُ عَقِبَ ورُودِها علىٰ جِبريلَ ، فتَصِيرُ الرَّحمةُ بواسطةِ جِبريلَ واصِلةً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَفْثٍ منهُ ، فتُحدِثُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُرباً رُوحِيّاً وعِلماً قَلبِياً ، وإحاطةً بأجزاءِ الكائناتِ ، وعِلماً بالمَغِيباتِ .

وسِرُّ وصولِ هٰذه الرَّحمةِ إلىٰ جِبريلَ ثمَّ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ووُصولِها إلىٰ غيرِ الأنبياءِ علىٰ أقدارِهِم ورُتَبِهِم لا بواسطةِ جِبريلَ ؛ بلْ إنَّ غيرَ الأنبياءِ تَرِدُ عليهِمُ الرَّحمَةُ قُدرةً مِنَ القادرِ ، والأنبياءُ تَرِدُ عليهِم بواسطَةِ رُؤيَةِ جِبريلَ ونَفْثِهِ قُدرَةً مع مَزْجِ حِكمَةٍ ؛ لزيادَةِ الاِتِّساعِ وكمالِ المواهبِ ؛ لأنَّ آثارَ القُدرةِ إذا تَجلَّت في القَوالبِ الحَكيمةِ . . كانَتْ أتمَّ وأبلَغَ ، وهٰذا علمٌ ظاهرٌ عندَ أربابِهِ ، وشَرحُهُ يطولُ .

فانكشَفَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بالنَّفْثِ في الرُّوعِ أنْ سيَبلُغُ مُلكُ أُمَّتِه ما زُوِيَ لهُ مِنَ الأرضِ[1] ، وأنَّهُ أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مُشفَّعٍ[2] ، وأنَّ لِواءَ الحمدِ بيدِه[3] . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، وانكشَفَ لهُ أنَّهُ لنْ تموتَ نفسٌ حتَّىٰ تَستَوفيَ رِزقَها .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث سيدنا ثوبان رضي الله عنه ، وفيه : « إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ . . . » الحديث .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، بلفظ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ، وَلَا فَخْرَ ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا فَخْرَ » .

فتَقرَّرَ أنَّ مَحَلَّ الوحيِ بواسطةِ جِبريلَ القلبُ ، ومَحَلَّ الإلهامِ مِن غيرِ واسطةٍ النَّفسُ المُلهَمةُ ، ومَحَلَّ النَّفثِ الرُّوعُ ، فانكشَفَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنَفْثِ جِبريلَ عليهِ السَّلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ عالَمَ الشَّهادةِ وكَوَّنَهُ ، وأحاطَ عِلماً بكُلِّيَّاتِ الكائناتِ فيهِ وجُزئِيَّاتِها ؛ لا يَعزُبُ عن عِلمِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ ، فأحصى الأرزاقَ والأقسامَ والمقسومَ لهم بعلمٍ واحدٍ أزَليٍّ ، تتَعدَّدُ المعلوماتُ وهو مُتَّحِدٌ ، وجَعلَ كلَّ قِسمٍ بإزاءِ مَنْ قُسِمَ لهُ ، ولولَا المقسومُ لهُ . . لمْ يكُن قِسماً ، ولولَا القِسمُ . . ما كانَ المقسومُ لهُ ؛ فتَلازمَا وُجوداً وعَدَماً ضَرورةً مِنْ وجودِ أحدِهما وجودُ الآخرِ ، ومِنْ عَدَمِه عَدَمُهُ ؛ إذْ وقَعَ ذٰلكَ قِسمَةً عادلةً ومُوازَنةً صَحِيحةً مِنْ حكيمٍ قادرٍ عالِمٍ عن إتقانٍ وإحكامٍ وعلمٍ تامٍّ ، فأعلَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأُمَّةَ وعلَّمَهُم وأسمَعَهُم .

فمِنهم مَنْ سَكَنَ إلىٰ قَولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصَدَّقَهُ إيماناً ، فسَكنَتْ جَوارِحُهُ عن كَدِّ الحِرصِ وشِدَّةِ الطَّمَعِ ، ومنهُم مَنِ انكشَفَ لهُ ذٰلكَ إيقاناً باهراً عِياناً ؛ بِبرَكةِ مُتابَعتِهِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتَحصَّلَ علىٰ بَرْدِ اليَقينِ ، وثَلْجِ الصَّدرِ ، وصِدقِ التَّوكُّلِ ، وصَفاءِ المعرفَةِ ، وسُكونِ القلبِ ، ورُكودِ الجَوارحِ ، فارتاحَ قلبُهُ ، وأراحَ جوارحَهُ ؛ لعمَلِهِ للهِ وإحكامِهِ وإتقانِهِ ومَشِيئَتِهِ السَّابقَةِ ، فصارَ علىٰ يقينٍ كالجبالِ ، لا يَتزَعزَعُ عندَ وُرودِ الشُّبُهاتِ ، ولا يَضطَرِبُ عندَ هُجومِ الخَيالَاتِ ، لا يَستَعبِدُهُ حِرصٌ ، ولا يَكُدُّه شَرَهٌ ، ولا يَستَجذِبُهُ طَمَعٌ ، ولا يَعتَرِيهِ طَبعٌ ، فسَمِعَ قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَاتَّقُوا ٱللَّهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي ٱلطَّلَبِ »[1] ، فمِنهُم مَنْ لَم يَطلُبْ ، وفَهِمَ مِنْ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَاتَّقُوا ٱللَّهَ » : أنَّهُ مأمورٌ بعَدَمِ الطَّلَبِ ؛ إذِ المتَّقِي حقَّ التَّقوىٰ : مَن دامَتْ شهادتُهُ استِحياءً مِنْ مَشهُودِهِ أنْ يراهُ ساعِياً في حَظِّهِ ؛ لعِلمِهِ بِسَعةِ مُلكِ مَشهودِهِ ، وكمالِ عِلمِهِ بحالِهِ ، وَوُفُورِ رَحمَتِهِ أنَّهُ لا

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠٠) .

يُحوِجُهُ إلىٰ سَعيِهِ وكَدِّهِ ، فلمَّا سَكَنَ عنِ الطَّلَبِ . . أتَتهُ الدُّنيا راغِمَةً ، وخَدمَتْهُ الأكوانُ ، ويَتناوَلُ حظَّه مِنَ الدُّنيا مأموناً مِنَ الخُسرانِ ، مِنْ غيرِ بَخْسٍ ونُقصانٍ ، كما يَتناولُ في الجِنانِ .

ومِنهُم مَنْ طَلَبَ وأجْمَلَ في الطَّلبِ ، فاتَّبَعَ الأمرَ ، واجتَنبَ النَّهيَ ، وصَفَّى الأعمالَ بالشَّرعِ .

فلِلأوَّلِ نَصِيبٌ مِنْ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّوكُّلُ حَالَتِي » ، وللثَّاني نَصِيبٌ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّكسُّبُ سُنَّتِي »[1] .

والله الموفق والمعين

(١) قوله : « التَّوكُّلُ حالَتِي ، والتَّكسُّبُ سُنَّتِي » لم أقف عليه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أخرج السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣١٢) ، ومن طريقه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٣٠) ، وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص ٢٥٠) من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى السَّرَّاجِ ، يَقُولُ : سُئِلَ ابْنُ سَالِمٍ بِالْبَصْرَةِ وَأَنَا أَسْمَعُ : أَنَحْنُ مُسْتَعْبَدُونَ بِالْكَسْبِ أَوْ بِالتَّوَكُّلِ ؟ قَالَ ابْنُ سَالِمٍ : (التَّوَكُّلُ حَالُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْكَسْبُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . .) .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ في الأقسامِ الأربعةِ في الزُّهدِ :

الزُّهدُ علىٰ أربعِ مراتبَ : وفي كلِّ مرتبةٍ منها طبقةٌ مِنَ الصَّالحينَ ، وأنا أذكرُ بتوفيقِ اللهِ كلَّ مرتبةٍ منها وأشرحُها .

فأمَّا الرُّتبتانِ الأُوليانِ : فقدْ علِمتُهُما وسَمِعتُهُما مِنَ المشايخِ والعلماءِ ، وإليهما إشاراتٌ في الكُتُبِ والحِكاياتِ عنِ المشايخِ وسالكِي طريقِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ .

وأمَّا الرُّتبتانِ الأُخريانِ : ففتُوحُ الغَيبِ .

وأنا أسألُ اللهَ تعالىٰ نَيلَ التَّوفِيقِ ، وأستَعصِمُهُ وأعوذُ بهِ مِنَ الخطَأ والزَّلَلِ ، وأنْ أقولَ في العلمِ بغيرِ عِلمٍ ، أو أعملَ في الدِّينِ بغيرِ يَقِينٍ .

فأمَّا الرُّتبةُ الأُولىٰ : في أوَّلِ الزُّهدِ وفيهِ أكثَرُ الزُّهَّادِ ، وهو المعروفُ المشهورُ عندَ الخلقِ ، وإيَّاهُ أرادَ أكثرُ العلماءِ .

وهو : عُزوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيا ، وقَطعُ الهمِّ عن فُضولِها ، والقَناعةُ بِقدْرِ البُلغَةِ مِنَ المأكولِ ، وقطعُ الهمِّ عنِ الَّذي سِواهُ ، والزُّهدُ في المسكنِ والملبوسِ إلَّا قَدْرَ ما لا بدَّ منهُ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلك مِنَ الزُّهدِ في الجاهِ عندَ الخلقِ .

وأجمَعُ كلمةٍ تُقالُ فيهِ : الزُّهدُ في الهوَىٰ ؛ حتَّىٰ في الكلامِ ، وإظهارِ العلومِ والمَقاماتِ والأحوالِ ، وكلِّ ما تَدعو النَّفسُ إليهِ بهَواها ؛ فإنَّ للنَّفسِ هوىً خَفِيّاً وشَهوةً في كثيرٍ مِن أبوابِ البِرِّ ، فتكونُ صورتُهُ عبادةً وطاعةً ، وهو لموضِعِ الشَّهوةِ الخَفِيَّةِ وشِرْبِ[1] النَّفسِ غيرُ ذٰلكَ .

وكثيرٌ مِنْ أبوابِ البِرِّ يدخُلُ فيهِ بعضُ النَّاسِ بِنيَّةٍ خالِصَةٍ ؛ وهو عبادةُ ذٰلكَ

---

(١) الشِّربُ هنا بكسرِ الشِّينِ المعجمَة بمعنى : الحظِّ والنَّصيبِ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ لَهَا شِرْبٌ ... ﴾ الآية [الشعراء : ١٥٥] .

الشَّخصِ مِنْ حيثُ حالُهُ ومُنتهىٰ علمِهِ بتَصحِيحِ النِّيَّةِ ، وهو بعينِهِ بالإضافَةِ إلىٰ غيرِهِ ليسَ بعبادةٍ ؛ لِما يَعلَمُ مِنْ نَفسِهِ مِنَ الشَّهوةِ الخَفِيَّةِ فيهِ ، وهٰذه الشَّهوةُ لا تَنكَشِفُ للرَّجلِ الأوَّلِ لقُصورِ حالِهِ ومَرتَبَتِهِ ، وتَنكَشِفُ للثَّاني .

فأمَّا الأوَّلُ : مأجورٌ ومشكورٌ .

والثَّاني : غيرُ مأجورٍ علىٰ ذٰلكَ ؛ لموضِعِ عِلمِهِ واطِّلاعِهِ ، ثمَّ تَخلُّفِهِ عنِ العملِ بمُقتَضىٰ عِلمِهِ : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] ، فإذا تَجرَّدَ العبدُ هٰذا التَّجرُّدَ عن فُضولِ الدُّنيا للهِ تعالىٰ ، وسَلَا عنها ، وعانقَ الإقبالَ على اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ ليلَهُ ونهارَهُ ، وانقَطعَ همُّهُ عن غدٍ وما يَتكوَّنُ فيهِ مِن أمورِ الدُّنيا ، وشَغَلَهُ وقتُهُ الحاضِرُ عن وقتِهِ الآتي . . فهو الزَّاهدُ .

فإذا تَحقَّقَ بها حتَّىٰ يَعلَمَ مولاهُ أنَّ نفسَهُ لا تَنزِعُ إلىٰ فُضولِ الدُّنيا ، وحَصَلَ على الطَّهارةِ والتَّقوىٰ ، وانقطعَ عنِ الدُّنيا وانقَطعَتْ عنهُ . . فعندَ ذٰلكَ يكونُ بريءَ السَّاحةِ ، غيرَ مُتَّهمٍ بمَحبَّةِ الرُّتبةِ عندَ مولاهُ وخالقِهِ ، فيُرقِّيهِ اللهُ تعالىٰ عن هٰذه الرُّتبةِ إلى الرُّتبةِ الثَّانيةِ في الزُّهدِ .

الرُّتبةُ الثَّانيةُ : هو أن يَكشِفَ الحقُّ سبحانَهُ لهُ حِجاباً ، ويَبذُلَ لهُ شيئاً مِنْ قُربِهِ ، ويَنكشِفَ لهُ شيءٌ مِنْ لمَعانِ سُبُحاتِ وَجهِهِ ، ويَصِيرَ لهُ بابٌ مَفتوحٌ إلىٰ جَنابِهِ الكريمِ ، ويَكشِفَ اللهُ تعالىٰ لهُ عن مُرادِهِ فيهِ ، فيُحكِمُ عِلمَهُ باللهِ تعالىٰ وبأمرِهِ عليهِ أنْ يَخرُجَ مِنْ إرادتِهِ في الأشياءِ ، فيَخرُجُ عندَ ذٰلكَ مِنْ إرادَتِهِ لتَركِ الدُّنيا أيضاً ، ومِنْ إرادتِهِ للدُّنيا ، فيَستَوِي عندَهُ تركُها والتَّلبُّسُ بها ؛ لأنَّهُ تركَها حينَ تركَها لإرادةِ نفسِه مُتقرِّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، فيَزهَدُ في الزُّهدِ الَّذي كانَ دُخولُهُ فيهِ بإرادتِهِ ؛ لأنَّه يَرىٰ أنَّ إرادتَهُ تَستَنِدُ إلىٰ عِلمِهِ القاصِرِ ، فيقُومُ بمُرادِ الحقِّ في الأشياءِ ؛ فقدْ يَنكشِفُ لهُ في شيءٍ مِنَ الدُّنيا أنَّ اللهَ تعالىٰ يُريدُ منهُ التَّلبُّسَ بهِ ، فيدخُلُ فيها باللهِ تعالىٰ تارِكاً بإرادتِهِ ، زاهداً في زُهدِهِ .

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .

فقدْ كانَ قلبُهُ يُريدُ الزُّهدَ أوّلاً ، ونفسُهُ تُريدُ الدُّنيا ، فحيثُ وصلَ إلىٰ هٰذا المَقامِ . . صارَتْ نفسُهُ بِطَبعِ القلبِ تُريدُ الزُّهدَ في الدُّنيا ، وقلبُهُ يُريدُ ربَّهُ ، فيَغلِبُ قلبُهُ نفسَهُ ، فيدخُلُ في الأشياءِ بالحقِّ ، فيَراهُ مَن لا يَعلَمُهُ أنَّهُ رَجَعَ إلىٰ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ، ولا يَعلَمُ أنَّ رُجوعَهُ بالحقِّ ، لا بإرادةِ نفسِهِ ، فقلبُهُ أخَذَ طَبْعَ الرُّوحِ ، ونَفسُهُ صارَتْ تَنوبُ عنِ القلبِ في إرادةِ الزُّهدِ الأوَّلِ ، فبينَ هٰذا الزُّهدِ الثَّاني ـ وهو الزُّهدُ في الزُّهدِ ـ وبين زُهدِهِ الأوَّلِ مِنَ الدَّرجَةِ ما لا يُدرِكُهُ إلَّا مَن رُزِقَ ذٰلكَ ، وفي هٰذه الرُّتبَةِ أُقِيمَ جَميعُ الصَّالحينَ والزُّهَّادِ المتَحقِّقِينَ والعلماءِ الرَّاسِخينَ وأئِمَّةِ المتَّقِينَ ، وقدْ يَرقَىٰ ببعضِ الزُّهَّادِ مِنْ هٰذه الرُّتبةِ بعدَ التَّحقُّقِ بها والتَّمكُّنِ فيها إلىٰ رتبةٍ ثالثةٍ في الزُّهدِ .

والرُّتبةُ الثَّالثةُ : أن يُكشَفَ لهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مُدبِّرٌ حَكِيمٌ ، رؤوفٌ رحيمٌ بالعبادِ ، لطيفٌ بأهلِهِ وخاصَّتِهِ ، فمِنْ حُسنِ تَدبيرِهِ أنْ جَعلَ نفسَ الآدميِّ بوضْعِ جِبلَّتِها طالبةً للعِوَضِ في كلِّ ما تُخرِجُ ، فلَا تَترُكُ الشَّيءَ إلَّا إذا رأتْ خَيراً منهُ ، فلمَّا زَهِدَ العبدُ أوَّلاً ، وتَركَ الأشياءَ للهِ تعالىٰ ، ورَغِبَ فيما عندَ اللهِ تعالىٰ ، وآثَرَ الآخِرةَ على الدُّنيا . . فتركَ العبدُ الدُّنيا للآخرةِ ، فكانَ هٰذا عِوضاً مُؤجَّلاً عندَ النَّفسِ ، ولا بدَّ لها مِنْ عِوضٍ مُعجَّلٍ ، فكانَ إرادتُها لهٰذا الزُّهدِ وإرادتُها لتَركِ الدُّنيا عِوضاً مُؤجَّلاً ، فتَروَّحَتْ بإرادتِها وأخذَتْهُ عِوضاً عنِ الدُّنيا الَّتي تَركتْها ، فللنَّفسِ في استِبدادِها بإرادَتِها شِرْبٌ تامٌّ .

فلمَّا وقَفَها الحقُّ علىٰ هٰذا الزُّهدِ الثَّاني . . حَكَمَ الزُّهدُ الثَّاني عليها بالإنسلَاخِ مِنَ الإرادةِ ، فانسَلخَتْ مِنْ إرادتِها ، وتَشَرَّفَتْ إلىٰ عِوَضٍ مِنْ إرادتِها ، فردَّ الحقُّ سبحانَهُ عليها الحظوظَ والسَّعةَ في الدُّنيا عِوضاً عندَها عن إرادتِها ، وحيثُ تركَتْ إرادتَها لإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فأخذَتْ ما أخذَتْ مِنَ الدُّنيا بإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فسَكنَتْ إلىٰ ذٰلكَ ، ولَمْ تَستَبْشِعْ ما أتاها مِنَ الدُّنيا وما أنكرَتِ التَّلبُّسَ بهِ ؛ لكَونِ العبدِ عَلِمَ أنَّ دخولَهُ باللهِ ، وأنَّهُ قائمٌ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فالزَّاهدُ الثَّاني

قَنَعَ بكونِهِ انسَلَخَ عن إرادتِهِ ، ويكونُ في الأشياءِ باللهِ تعالىٰ ، فرأىٰ أنَّهُ بَرِيءُ السَّاحةِ ، صحيحٌ مع اللهِ تعالىٰ ، غيرُ متَّهمٍ فيما أخذَ مِنَ الدُّنيا .

والزَّاهدُ الثَّالثُ انكشَفَ لهُ أنَّ هٰذه الدُّنيا سِيقَتْ إليهِ عِوضاً عن إرادتِهِ ، فَما أحَبَّ أنْ تكونَ عبوديَّتُهُ بالأعواضِ ، فانكشَفَتْ لهُ العُبودِيَّةُ الصِّرفَةُ مِن غيرِ طلبِ عِوَضٍ ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ بلَطِيفِ حِكمَتِهِ أدخَلَ عليهِ الحظوظَ رِفقاً بهِ ، فكشَفَ لهُ الحقُّ الزُّهدَ الثَّالثَ ، فتَركَ ذٰلكَ الرِّفقَ مِنَ اللهِ للهِ باللهِ ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ ما أطلَعَهُ علىٰ هٰذه الرُّتبةِ إلَّا وهو يُرِيدُ منهُ ذٰلكَ ، فخَرجَ مِنْ قِيامِهِ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ إرادتِهِ ، وكانَ رُجوعُهُ رجوعَ تَرقٍّ ؛ فإنَّ إرادتَهُ هٰذه آنِفاً باللهِ تعالىٰ أيضاً ، فكأنَّ اللهَ تعالىٰ وهبَ لهُ وُجوداً جديداً ، وكوَّنَهُ تَكويناً ثانياً بعدَما كانَ أعدَمَ وجودَهُ بإعدامِ إرادتِهِ ، فتَركَ الحظوظَ بإرادةِ نَفْسِهِ ، فبِزُهدِهِ الأوَّلِ قَطعَ حُجُباً أرضِيَّةً ، فوصَلَ إلىٰ إرادةِ اللهِ تعالىٰ ، وتَحقَّقَ بالزُّهدِ الثَّاني ، وبِزُهدِهِ الثَّاني صارَ ذا قلبٍ ، وبالزُّهدِ الثَّالثِ انسلَخَ مِنَ القلبِ كما انسَلَخَ مِنَ النَّفْسِ ؛ لأنَّ النَّفْسَ وجودُهُ ظُلمانِيٌّ أرضِيٌّ ، والقلبَ وجودُه نُورانِيٌّ سماوِيٌّ ، فكانَ مُطالَعَتُهُ لسَواطعِ القُربِ ، وطريقُ الأفعالِ في الزُّهدِ الثَّاني حيثُ انكشَفَ لهُ شيءٌ مِنْ سُبُحاتِ وَجهِهِ الكريمِ ، كانَ ذٰلكَ الكَشْفُ والتَّجلِّي مِنْ طَريقِ الأفعالِ والصِّفاتِ .

وفي الزُّهدِ الثَّالثِ انكشَفَ لهُ لَمْحٌ يَسِيرٌ مِن تَجلِّي الذَّاتِ الَّذي يكونُ كمالُ ذٰلكَ في الآخرةِ ، فصارَ في مَقامِ الزُّهدِ الثَّالثِ مُحقَّقاً بهِ ، تارِكاً للزُّهدِ الثَّاني ، مُشاكِلاً للزُّهدِ الأوَّلِ ، وشَتَّانَ بينَ الأوَّلِ والثَّانِي مِنْ حيثُ المعنَىٰ ، وإن تَشاكلَا مِنْ حيثُ الصُّورةُ ؛ ففِي الزُّهدِ الثَّاني هو فانٍ في الحقِّ لوقوفِهِ مع إرادةِ اللهِ تعالىٰ وانسِلَاخِهِ عن إرادةِ نفسِهِ ، وفي الثَّالثِ هو باقٍ بالحقِّ ، ووهَبَ اللهُ سبحانَهُ لهُ وجوداً ثانياً كما ذكرنا ، ذا وجودٍ موجودٍ باللهِ سبحانَهُ ، انقَطعَ عنِ الأشكالِ وجاوَزَ الأشباهَ ، وصارَ واحِداً للهِ في أرضِه ، فيُحدِثُ الحقُّ عندَهُ انبِعاثاً إلى الخَلقِ

يُريدُهُم للهِ تعالىٰ ، وفي طريقِ الاستقامَةِ لعبوديَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وكلُّ مَنْ يَرىٰ عندَهُ شيئاً مِنَ اللهِ تعالىٰ وآثارِ فَضلِهِ . . يَنبَعِثُ إليهِ بالكُلِّيَّةِ ويَطلُبُهُ ، ويكونُ ناصِحاً للخَلقِ كافَّةً ، أميناً مِنْ عندِ اللهِ فِيهِم ، فيُلقَىٰ إليهِ أنَّهُ مُرادٌ بنُصحِهِم ودعوتِهِم إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ بَصيرَةٍ ؛ نيابةً عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وخِلَافةً مِنَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ في البَواطنِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] ، فكما أنَّ في الظَّاهرِ خليفةً يَسوسُ أُمَمَ العبادِ والبلادِ . . يكونُ في الباطنِ خليفةٌ تَصدَّقَ اللهُ بهِ على الخَلقِ ، فإذا عَلِمَ أنَّهُ في هٰذا المَقامِ . . فزُهدُه يَقضِي بانقطاعِ رابِطَتِهِ عمَّا سِوى اللهِ تعالىٰ ، وباطِنُهُ يُطالِبُ بالإنفرادِ بالحقِّ ، لا يسَعُهُ شيءٌ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِي مَعَ ٱللَّهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ »[2]

وعِلمُهُ بالقيامِ الَّذي وصَلَ إليهِ يَقضِي بأنْ يكونَ لهُ مع الخَلقِ شُغْلٌ ؛ ليُعَلِّمَهُم ويُعَرِّفَهم ويَدعُوَهُم ، ويُرشِدَ إلى المَقاماتِ والأحوالِ ، ويُدرِّجَ الخلقَ إليها ؛ ففي هٰذا الحالِ يَحتاجُ إلىٰ زُهدٍ رابعٍ .

والزُّهدُ الرَّابعُ : هو أنْ يَرُدَّهُ الحقُّ إلىٰ تَناوُلِ حُظوظٍ وشَهَواتٍ ولَذَّاتٍ وتَلبُّسٍ بشيءٍ مِنْ مُباحاتِ الدُّنيا ، فيكونُ تناوُلُهُ الدُّنيا وتَلبُّسُهُ بشيءٍ منها مِنَ النَّوافلِ ؛ إنَّما التَّكدِيرُ مِنْ قِلَّةِ تَزكيَةِ النَّفسِ ، فهو مِنْ حقِّهِ أنْ يَعمَلَ في إكمالِ التَّزكيَةِ ، فهو يَعمَلُ في تَروِيحِ القلبِ بتَركِ النَّوافلِ .

ولعَمرِي ؛ إنَّهُ صحيحُ الحالِ ؛ لكونِهِ واجداً للتَّروِيحِ ، مُقِيماً على الذِّكرِ ،

---

(١) سورة صٓ : (٢٦) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٦) بلفظ : « لي وقتٌ لا يَسَعُني فِيهِ غير ربِّي عزَّ وَجَلَّ » . وقال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٥٦٥) : (يذكره المتصوفة كثيراً . . . ، ويُشبه أن يكون معنىٰ ما للترمذي في « الشمائل » [(٣٣٧)] ولابن راهويه في « مسنده » عن عليٍّ في حديثٍ طويلٍ : كان صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أتىٰ مَنزِلَه . . جزَّأ دُخولَهُ ثلاثةَ أجزاءٍ : جزءٌ لله تعالىٰ ، وجزءٌ لأهله ، وجزءٌ لنفسه ، ثم جزَّأ جزأَهُ بينه وبين النَّاسِ) .

ولكنَّهُ تحتَ القُصورِ بالنِّسبةِ إلىٰ مَنْ كمُلَ حظُّه مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وتَوفَّرَ تَزكِيتُهُ للنَّفسِ .

وسببُ هٰذا الإلتباسِ علىٰ كثيرٍ مِنَ الصَّادِقينَ قِلَّةُ عِلمِهِم ومَعرِفَتِهِم بالنَّفسِ وصِفاتِها وأخلاقِها ووضعِها الجِبِلِّيِّ ، وخُلُقِها اللَّازِمِ الطَّبيعِيِّ ، ولهٰذا شرحٌ يطولُ .

وذاكَ أنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ لكونِها أرضِيَّةً سُفلِيَّةً ، ولها بوَضعِها الجِبِلِّيِّ ظُلمَةٌ مُتصاعِدَةٌ تَسري إلى القلبِ فتُغيِّرُهُ وتُكدِّرُهُ ، وقدْ تُغيِّرُ الظُّلمَةُ القلبَ بعدَ حُكمِها فيهِ ، وتَسري إلى الرُّوحِ فتُقيِّدُهُ عن نُفوذِ نُورِهِ وسِرايتِهِ ؛ إذِ الرُّوحُ لها بوضعِها وجِبِلَّتِها نورٌ ؛ لأنَّها سماويَّةٌ عُلويَّةٌ ، فإذا التَحقَ ظُلمَةُ النَّفسِ بالرُّوحِ .. قَيَّدَتْهُ عن نُفوذِ السِّرايَةِ ، فإذا سَرىٰ منهُ نورٌ . . وصَلَ إلى القلبِ ؛ فيَطِيبُ قلبُهُ كحالِ مَنْ ذكرتُهُ مِنْ قَبلُ ، ولكنْ لا يَكمُلُ تَصرُّفُهُ حتَّىٰ يَسرِيَ إلى النَّفسِ فيُزكِّيَها ويُطهِّرَها عن كَدَرِها ، ويُكوِّنَها بطبعِ القلبِ .

فالعبدُ المرادُ المُلهَمُ ، المرادُ بالحظوظِ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . يَعمَلُ في التَّزكِيَةِ والتَّطهيرِ للنَّفسِ حتَّىٰ يَصِيرَ لدَى التَّزكيَةِ الكامِلَةِ بِطبْعِ القلبِ ، فتَزولَ ظُلمَتُها ، إلَّا اليَسِيرَ اللَّازِمَ الَّذي هو مِن ضَرورَةِ وجودِها ، وتَطمَئِنَّ لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، ثُمَّ تَطمَئِنَّ للهِ تعالىٰ ، وهُما مُرتَّبتَانِ ، فإذا صارَتْ هٰكذا . . قلَّ ظُلمَتُها إلَّا ذٰلكَ اليَسِيرُ ، فأقصَىٰ ما تَنتَهِي ظُلمَتُها إلى القلبِ ؛ فيَكتَسِبُ القلبُ فَيضاً في بعضِ الأحايينِ عندَ ثَوَرانِها للحكمَةِ البالغةِ الإلٰهيَّةِ ، ولا تَصِلُ إلى الرُّوحِ ؛ لضَعفِ الظُّلمَةِ ، فيُطلَقُ الرُّوحُ حينئذٍ مِنْ وَثاقِ ظُلمَةِ النَّفسِ ، ويَكمُلُ تَصرُّفُهُ ، ويَنفُذُ حُكمُهُ ، ويَسري نورُهُ ، فيَخرِقُ نورُهُ القلبَ ، ويَصِلُ إلى النَّفسِ ، فيُكسِبُها طُمأنِينَةً وسُكوناً ، فعندَ ذٰلكَ يَذهَبُ كَلُّ[1] العبادةِ ويألَفُها .

---

(١) الكَلُّ : الثِّقَلُ . انظر « غريب القرآن » لابن قتيبة (ص ٢٤٧) .

ولا تَزالُ العِبادةُ تُكسِبُ النَّفسَ سُكوناً ، والقلبَ سَكِينَةً ورَوحاً ، والرُّوحَ وصولاً إلى الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ وقُربَةً ، فتَصِلُ العبادةُ بعبادةِ الملائكةِ ، فيَعبُدُ ربّاً يراهُ على الكَشفِ والعِيانِ بقدْرِ نورِ الإيقانِ ، وهو النِّهايةُ والغايةُ .

وعلىٰ قدْرِ التَّخلُّفِ عن هـٰذا المقامِ قُصورٌ وفُتورٌ ، فصورةُ الصِّدِّيقِينَ الأقوياءِ في إدامَةِ الدَّأبِ في العبادةِ . . كصُورةِ المتَعبِّدينَ المكابِدينَ ، ونهايتُهُم رجوعٌ إلى البِدايةِ ، ولـٰكنْ شَتَّانَ بينَهُم وبينَ المتَعبِّدِينَ مِنْ وراءِ حِجابٍ ، يَتحمَّلونَ أعباءَ الكُلْفَةِ والمكابَدةِ ، وهم مَرحومونَ عندَ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰؤلاءِ المقَرَّبونَ الصِّدِّيقونَ يَسبَحونَ في بِحارِ الرُّوحِ ؛ تَحقِيقاً لقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « قُرَّةُ عَينِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٢٢٩٣) ، والنسائي (٣٩٣٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٠/٢) ، من حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

بِنيَةُ العبدِ ووجودُهُ يُحاكِي مدينةً جامعةً ، وأعضاؤُهُ وجوارحُهُ بمثابَةِ سُكَّانِ المدينةِ وقُطَّانِ البلدِ ، والعبدُ في وقتِ إقبالِهِ على الذِّكرِ كمُؤذِّنٍ صَعِدَ مَنارةً على بابِ المدينةِ يَقصِدُ إسماعَ أهلِ المدينةِ بالأذانِ ، فهٰكذا الذَّاكِرُ المتَحقِّقُ ، يَقصِدُ بالذِّكرِ إيقاظَ قلبِهِ وجميعَ أجزائِهِ وأبعاضِهِ ، يَذكُرُ بلسانِهِ ، ويَعِي الذِّكرَ بقلبِهِ ومُتفرِّقاتِ جوارحِهِ ، فتكونُ مُناداةُ الذِّكرِ باللِّسانِ وضِياؤُهُ في قُبَّةِ القالَبِ ، يَستَحضِرُ بالذِّكرِ سُكَّانَ مَدينةِ النَّفسِ ، ويَستَجمِعُ بهِ شَوارِدَ عساكرِ الفَهمِ والحُسنِ ، يقولُ ببعضِهِ ، ويَسمَعُ بكُلِّهِ ، إلىٰ أنْ تَنتَقِلَ الكلِمةُ مِنَ اللِّسانِ إلى القلبِ ، فيتنوَّرُ بها ويَظفَرُ بجدوَى الأحوالِ ، ثمَّ يَنعَكِسُ نورُ القلبِ على القالَبِ ، فيَتزيَّنُ بمحاسنِ الأعمالِ ؛ فتكونُ الأحوالُ حينئذٍ حِليةَ باطنِهِ ، والأعمالُ مَلبَسَ ظاهرِهِ .

والسلام

ومِنْ كلَامِهِ : قالَ رحمَهُ اللهُ :

إنَّ العبدَ إذا صفَا قلبُهُ مع اللهِ ؛ فإذا قالَ : لا إلهَ إلَّا اللهُ . . اتَّصلَتْ أجزاءُ الكائناتِ بقلبِهِ كاتِّصالِ العُروقِ بالأشجارِ ، والأوراقِ بالأعوادِ .

ومِنْ كلَامِهِ في معنىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لَا يَكْمُلُ إِيمانُ أَحَدِكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[1] .

قالَ : إنَّ العبدَ ما دامَ لهُ مَيلٌ إلى الدُّنيا ، ورُكونٌ إليها ، ونُزوعٌ إلىٰ جاهِها وأقسامِ حُظوظِها . . لا يُتصَوَّرُ أنْ يَستَوعِبَ أقسامَ كمالِ الإيمانِ ؛ لأنَّ إخلَادَهُ إلى الحُظوظِ العاجِلةِ يُغيِّرُ مِزاجَ إيمانِهِ عن صِحَّةِ الِاستقامَةِ والِاعتدالِ ، فيَعدِلُ عن قَضِيَّةِ العدلِ في حَقِيقَةِ إرادةِ الشَّيءِ لأخيهِ مِثلَ ما يُريدُهُ لنفسِهِ ؛ لمكانِ إيثارِهِ نفسَهُ علىٰ غيرِهِ ؛ وإنَّما يُتصَوَّرُ ذٰلكَ في حقِّهِ إذا انكمَشَتْ عُروقُ نفسِهِ الضَّاربَةِ بالهوَىٰ ، ولانَتْ بالعلمِ ، وتأدَّبَتْ بسياسةِ الرِّياضَةِ المُكسِبَةِ لها حقِيقةَ الزُّهدِ ، ولا يَزهَدُ كُلَّ الزُّهدِ في الدُّنيا إلَّا بنازِلِ صَفوِ المحبَّةِ الخاصَّةِ لأهلِ الخُصوصِ الغالبةِ حلَاوتُها حلاوةَ الهوىٰ ، فعندَ ذٰلكَ يَنقَطِعُ عنهُ المنازَعةُ إلى الحُظوظِ الفانيَةِ والأنصِبَةِ الزَّائلَةِ ، ويَرتَقِي مِنْ حَضِيضِ الرُّسوبِ في الأرضِ إلىٰ أعالي ذُروَةِ التَّسامِي إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ ، فتَستَوِي الأنفُسُ كلُّها بالنِّسبَةِ إليهِ علىٰ حدٍّ سواءٍ ، وتكونُ نفسُهُ مِن جُملَتِها ، فيُتصَوَّرُ حينئذٍ في حقِّهِ إرادةُ الشَّيءِ لأخيه كما يُريدُهُ لنَفسِهِ ؛ لِاستِيفَائِهِ أقسامَ كمالِ الإيمانِ ؛ لرُسوخِ قَدمِهِ في مَقامِ الزُّهدِ المتَدارَكِ بِصِرْفِ المحبَّةِ ، وهٰذا غايةُ ما في هٰذا البابِ .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه .

ومِنْ كلَامِهِ في قولِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الوَفاةِ : « وَا كَربَاهْ »[1] قالَ :

لمْ يكنْ ذٰلكَ أسَفاً علىٰ مُفارقَةِ الدُّنيا ؛ كلَّا ، وإنَّما ذٰلكَ لأنَّهُ كُوشِفَ بما أعَدَّ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنَ المِنَحِ والكراماتِ والمواهبِ ، فاستَبطَأَ الوصولَ إليها ، واستَطالَ انقطاعَ عَلاقةِ رُوحِهِ الطَّاهرَةِ عن قلبِهِ المطَهَّرِ ، فقالَ : « وَا كَربَاهْ » .

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » : ٥٨/٣ (٢٦٧٦) وابن الجوزي في « الموضوعات » : ٢٩٥/١ ، من حديث سيدنا جابر بن عبد الله ، وسيدنا عبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنهم ، في حديثٍ طويل ، اشتمل علىٰ معانٍ منكرة .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

إذا تلَا القارِئُ القرآنَ حقَّ تِلَاوتِهِ . . فكأنَّ جَمِيعَهُ أحسَنُ القَصَصِ ؛ وهو أنْ يَرى التَّالي كلَامَ اللهِ تعالى المتَكلِّمِ بهِ في أثناءِ تِلَاوتِهِ ، وهٰذه رُتَبُ أقوامٍ انسَلَخُوا عنِ الدُّنيا وعَلائِقِها ، ونَبذُوها وراءَ ظُهورِهم ، وآثَروا بها أربَابَها وتَفرَّغوا لعبادةِ اللهِ تعالىٰ وتِلاوةِ كلَامِهِ ، فأفضَىٰ بِهِمُ الدَّأَبُ في العبادةِ بشرطِ الحُضورِ فيها إلىٰ أنِ اكتَحَلوا بأنوارِ القُرْبِ ، واستَغرقُوا في تَيَّارِ بحارِ التَّوحيدِ ، واستَسهَلُوا تَلاطُمَ أمواجِها ، واستَلَانُوا مُستوعَرَ أخطارِها ، فحينئذٍ تَدَّاركُهُم كؤوسُ التَّجلِّياتِ الإلٰهيَّةِ في تَضاعِيفِ أداءِ حقِّ التِّلاوةِ لكلَامِ اللهِ تعالىٰ .

فقالَ بعضُ السُّؤَّالِ : إذا كانَ في الأولياءِ مَنْ هو مَحظُوظٌ بهٰذا الوَصفِ . . فالأنبياءُ عليهِمُ السَّلامُ أجلُّ رُتبَةً وأعظمُ قدراً ، فما بالُهُم وقدْ قَدَرَ الشَّيطانُ أنْ يُلقِيَ في أُمنِيَّتِهِم علىٰ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُم فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ ؟[1] .

فقالَ الشَّيخُ مُجِيباً : لا مُنافاةَ ؛ لأنَّ إلقاءَ الشَّيطانِ كانَ في القِراءةِ[2] ، لا في

---

(١) سورة الحج : (٥٢) .

(٢) هٰذه إشارة إلىٰ قصة الغرانيق الواهية المتهافتة ، وقد أخرجها البَزَّارُ في « المُسنَد » (٥٠٩٦) ، والطَّبرانيُّ في « المُعجمِ الكبيرِ » (٥٣/١٢) (١٢٤٥٠) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم كَانَ بِمَكَّةَ فَقَرأَ سُورَةَ النَّجْمِ حَتَّى انتهىٰ إلىٰ : ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٠] فَجَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ : (تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلا ، الشَّفَاعَةُ منها ترتجىٰ) ، قال : فسمع ذٰلك مشركو أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسُرُّوا بِذَٰلِكَ ، فَاشْتَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج : ٥٢] .

وقد جَزَمَ جماعة مِن الحُفَّاظِ ببُطلانِ هٰذه القِصَّةِ عَقلاً ، وعدمِ ثُبُوتِها نَقلاً ؛ منهم : القاضي عِياضٌ في « الشِّفا » (٢٨٨/٢ ـ ٢٩٣) ، والطِّيبيُّ في « الكاشِفِ عن حقائِقِ السُّنَنِ » (١١١١/٤) ، والزَّيلَعيُّ في « الإسعاف بأحاديثِ الكشَّاف » (٣٩٢/٢) ، والكرمانيُّ في « الكواكب الدَّراري في شَرحِ صحيحِ البخاري » (١٥٣/٦) ، وغيرهم . ←

القلبِ المحصَّنِ بأنوارِ الشُّهودِ ؛ المُصَانِ عن مُزاحمَةِ لَوثِ الوُجودِ ؛ فإنَّ مِثلَ هٰذا القلبِ لا سُلطانَ للشَّيطانِ عليهِ .

فعارَضَ السَّائِلُ وقالَ : فلِمَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّهُ لَيُغانُ عَلَىٰ قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » ، وفي روايَةٍ : « مِئَةَ مرَّةٍ » ؟[1]

فقالَ الشَّيخُ مُجيباً : لا يَنبَغِي أنْ يُعتَقدَ أنَّ الغَينَ نَقصٌ في حالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ بلْ هو كمالٌ أو تَتِمَّةُ كمالٍ ، وهٰذا السِّرُّ دَقِيقٌ لا يَنكَشِفُ إلَّا بمِثالٍ مَحسوسٍ ؛ وهو أنَّ الجَفْنَ المُسبَلَ علىٰ حدَقَةِ البَصرِ وإنْ كانَتْ صورَتُهُ صورةَ نُقصانٍ مِنْ حيثُ هو إسبالٌ وتَغطِيةٌ علىٰ ما مِنْ شأنِهِ أنْ يكونَ بادِياً مَكشُوفاً ؛ فإنَّ المقصودَ مِنْ خلقِ العَينِ إدراكُ المدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ ، وذٰلكَ لا يتأتَّىٰ إلَّا بانبِعاثِ الأشِعَّةِ الحِسِّيَّةِ مِنْ داخلِ العَينِ واتِّصالِها بالمرئيَّاتِ علىٰ مَذهبِ قَومٍ ، وبانطباعِ صُوَرِ المدرَكاتِ في الكُرَةِ الجِلدِيَّةِ علىٰ مَذهبِ آخرينَ .

وكيفما قُدِّرَ . . فلَا يَتِمُّ المقصودُ إلَّا بانكشافِ العَينِ ، وعَزلِها عمَّا يَمنَعُ مِنِ انبِعاثِ الأشِعَّةِ عنها ، ولٰكنْ كانَ الهواءُ المحِيطُ بالأبدانِ الحيَوانِيَّةِ قلَّما

← وقال العلَّامةُ محمَّد صادِق عرجون عميدُ كُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ الأسبَقُ في كتابِه « محمَّد رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : مَنهجٌ ورِسالةٌ ، بحثٌ وتحقيقٌ » (٣٢/٢) : (هٰذه الأُكذوبةُ الخَبِيثةُ البَلهاءُ كانت إحدى الفِرى الحاقِدةِ الَّتي طوَّفَتْ ببعضِ مؤلِّفاتِ الجمَّاعِينَ للغثِّ والسَّمِينِ ، فرَواها في غَفلةٍ مِن عَقلِه وعِلمِه بعضُ المُغفِلِينَ ، وأُدخِلت علىٰ بعضِ المُحدِّثِينَ مُغَلَّفةً بأغلفةِ الأسانِيدِ ، مُحاطةً بهالاتِ بَرِيقِ الأسماءِ ، فردَّدها بأساليبَ مُختلفةٍ ، وفرطَحها كثيرٌ ممن تلقَّفَها بالبَلَهِ والغَفلةِ ، ورَتَعَت في أسفارِ المؤرِّخِينَ ، فأعادُوا فيها وأبدَوا ، وزادُوا ونَقَصُوا ، وأثبتُوا وحَذَفُوا ، وشَوَّهُوا وزَيَّنُوا ، ومَسَخُوا وحرَّفُوا ، وتَلقَّاها القصَّاصُون فغنَّوا بها ، وكان إبليسُ هو عازِفَ مُوسِيقاها في أنديتِهم ومجالِسِهم ، ومَصْمَصَت لسَماعِ أباطِيلِها شِفاهُ الجاهِلِين من غَوغاءِ العامَّةِ وعامَّةِ الغَوغاءِ الَّذين تَكبُر في صُدُورهم الغرائِبُ والأعاجيبُ من المُضحِكاتِ المُبكِياتِ ، فيَهشُّون لها ، ويَتزاحَمُونَ علىٰ محافِلِها . . .) .

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث سيدنا الأغرِّ المُزَني رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ » .

وأخرج البخاري (٦٣٠٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَاللهِ ؛ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

يَخلُو مِنَ الأغبِرَةِ الثَّائرةِ بحركةِ الرِّياحِ ، فلو كانَتِ الحدَقَةُ دائمةَ الإنكشافِ .. لاستَضَرَّتْ بمُلاقاتِها وتَراكُمِها عليها ، فأُسبِلَتْ أَغطِيةُ الجُفونِ عليها وِقايةً لها مِنْ تلكَ الأغبِرَةِ ومُصقِلةً لها ؛ لتَصْقُلَ الحدَقَةَ ؛ بإسبالِ الأهدابِ ورَفعِها بخِفَّةِ حَرَكةِ الجَفْنِ ، فيَدومُ جَلاؤُها ويَحتَدُّ نظرُها ، فالجَفْنُ وإن كان نُقصَاناً ظاهِراً .. فهو كمالٌ حقيقةً .

فهٰكذا لمْ تَزَلْ حَدَقةُ بَصِيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتعرِّضَةً لأَنْ تَصدَأَ بالأغبِرَةِ الثَّائرةِ مِنْ أنفاسِ الأغيارِ ، فلَا جَرَمَ دَعتِ الحاجَةُ إلىٰ إسبالِ جَفْنٍ مِنَ العينِ علىٰ حَدقَةِ بَصِيرَتِهِ ؛ سَتراً لها ووِقايةً وصَقالةً عن تلكَ الغَبَراتِ المثارَةِ برُؤيَةِ الأغيارِ وأنفاسِها ، فصحَّ أنَّ العينَ وإنْ كانَتْ صورتُهُ نقصاً . . فمعناه كمالٌ وصَقَالٌ حقيقةً .

ثمَّ قالَ : وأيضاً : إنَّ رُوحَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ تَزَلْ في التَّرقِّي إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ مُستَتبِعةً للقلبِ في رُقِيِّها إلىٰ مَركَزِها ، وهٰكذا القلبُ كانَ يَستَتبِعُ نفسَهُ الزَّكيَّةَ ، ولا خفاءَ أنَّ حَرَكةَ الرُّوحِ والقلبِ أسرعُ وأتَمُّ مِنْ نَهضَةِ النَّفسِ وحَركَتِها ، فكانَتْ خُطى النَّفْسِ تَقصُرُ عن مَدَى الرُّوحِ والقلبِ في العُروجِ والوُلوجِ حريمَ القُرْبِ ، ولُحوقِها بهما ، فاقتَضَتِ العَواطِفُ الرَّبانِيَّةُ على الضُّعفاءِ مِنَ الأمَّةِ إبطاءَ حركةِ القلبِ بإلقاءِ الغَينِ عليهِ ؛ لئلَّا يُسرِعَ القلبُ ويَسرَحَ في مَعارِجِ الرُّوحِ ومَدارِجِها ، فتَنقَطِعَ عَلاقةُ النَّفسِ عنهُ لقُوَّةِ الإنجذابِ ، فيَبقَى العِبادُ مُهمَلِينَ مَحرُومِينَ عنِ الإستِنارةِ بأنوارِ النُّبوَّةِ والإستِضاءةِ بمِشكاةِ مِصبَاحِ الشَّريعةِ .

فحيثُ كانَ يَرىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إبطاءَ القلبِ بالغَينِ المُلقَىٰ عليهِ ، وقُصورَ النَّفسِ عن شأوِ تَرقِّي الرُّوحِ إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ . . كانَ يَفزَعُ إلى الإستِغفَارِ ؛ إذْ لمْ تَفِ قُواها في سُرعَةِ اللُّحوقِ بها ، وهٰذا مِنْ أحسنِ ما يُقالُ في هٰذا المعنَىٰ ، وأعزِّ مَشروحٍ فيهِ .

والله تعالىٰ أعلم

ومِنْ كلَامِهِ في معنَىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : «ٱلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ »[1] قالَ : إنَّ السِّجنَ والخروجَ منهُ يَتعاقَبانِ علىٰ قلبِ العبدِ المؤمنِ علىٰ تَوالي السَّاعاتِ ومُرورِ الأوقاتِ ؛ لأنَّ النَّفسَ كلَّما ظهَرَتْ بصِفاتِها . . أَظلَمَ القلبُ حتَّىٰ ضاقَ وانكمَدَ ، وهلِ السِّجنُ إلَّا تَضْييقٌ وحَجْرٌ مِنَ الخروجِ والوُلوجِ ؟

فكلَّما همَّ القلبُ بالتَّبرُّزِ عن مَشائِمِ الأهواءِ الدُّنيويَّةِ ، والتَّخلُّصِ عن قُيودِ الشَّهَواتِ العاجلَةِ ؛ تسبُّباً إلى الآجِلةِ ، وتَنزُّهاً في فَضاءِ المَلكوتِ ، ومُشاهَدةً للجمالِ الأزَليِّ . . حَجَزَهُ الشَّيطانُ المردودُ عن هٰذا البابِ ، المطرودُ بالأحجابِ ؛ فتَدلَّىٰ بحَبلِ النَّفسِ الأمَّارةِ إليهِ ، فكدَّرَ صفوَ العَيشِ عليهِ ، وحالَ بينَهُ وبينَ مَحبوبِ طبعِهِ ، وهٰذا مِن أعظمِ السُّجونِ وأضيَقِها ؛ فإنَّ مَنْ حِيلَ بينَهُ وبينَ مَحبوبِهِ . . ضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهِ نفسُهُ ، ولهٰذا المعنَىٰ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عن جماعةٍ مِنَ الصَّحابَةِ حيثُ تَخلَّفوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الغَزَواتِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ . . . ﴾ الآيةَ[2] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة التوبة : (١١٨) .

ومِنْ كلامِهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[1] .

إنَّ السَّالكَ في سُلوكِهِ : أوَّلُ ما يَبدو لهُ مِنْ لوائحِ أنوارِ التَّوحيدِ يكونُ علىٰ مِقدارِ كوكبٍ ، فإذا تَوغَّلَ في السُّلوكِ ، وتَجرَّدَ عنِ العَلائقِ ؛ ازدادَتْ تلكَ اللَّوائحُ[2] لمعاناً علىٰ مِقدارِ نُورِ القَمَرِ ، فإذا ارتقَىٰ في سُلوكِهِ رُتبةً أخرىٰ . . تَلمَّعَ علىٰ مِقدارِ الشَّمسِ ، وإلىٰ هٰذا الحدِّ يكونُ السَّالكُ بَعْدُ في مَقامِ التَّلوينِ[3] ، فإذا جاوزَ التَّلوينَ إلىٰ مَخدَعِ التَّمكينِ[4] ، ولاحَ لهُ ناصِيَةُ مَقامِ التَّوحيدِ ، وقَطعَ شِباكَ الأحوالِ بقُوَّةِ التَّفريدِ ، واستَغرقَ في تَيَّارِ بِحارِ القُرْبِ . . قالَ حينئذٍ مُجهِراً : وجَّهتُ وجهِيَ ؛ للآيةِ ، وأنشدَ مُستَشهِداً : [من الكامل]

مَنْ كَانَ فِي ظُلَمِ ٱللَّيَالِي سَارِياً ... رَصَدَ ٱلنُّجُومَ وَأَوْقَدَ ٱلْمِصْبَاحَا

حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱلْبَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْءُهُ ... تَرَكَ ٱلنُّجُومَ وَرَاقَبَ ٱلْإِصْبَاحَا

حَتَّىٰ إِذَا ٱنْجَابَ ٱلظَّلَامُ بِأَسْرِهِ ... وَرَأَى ٱلصَّبَاحَ بِأُفْقِهِ قَدْ لَاحَا

تَرَكَ ٱلْمَسَارِحَ وَٱلْكَوَاكِبَ كُلَّهَا ... وَٱلْبَدْرَ وَٱرْتَقَبَ ٱلسَّنَا ٱلْوَضَّاحَا

---

(١) سورة الأنعام : (٧٥) .

(٢) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٢) : (هِيَ من صفاتِ أَصْحَابِ البِدايات في التَّرقِّي بالقلب ، فلم يدم لَهُمْ بَعْد ضياء شموس المعارف) .

(٣) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٥) : (التلوين : صفة أرباب الأحوال) .

(٤) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٥) : (التمكين صفة أهل الحقائق ؛ فما دام العبد في الطريق . . فهو صاحب تلوين ؛ لأنه يرتقي من حالٍ إلىٰ حال ، وينتقل من وصفٍ إلىٰ وصف ، ويخرج من مرحل ، ويحصل في مربع ، فإذا وصل . . تمكَّن) .

ومِن كلَامِه في قولِه تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1]

قالَ : ليسَ هٰذا علىٰ سبيلِ المجازِ مَعنِيّاً بهِ التَّعبيرُ بالحالِ عنِ المآلِ كما زعمَ أهلُ الأصولِ ، وهو ظاهرٌ في معناهُ ، جَلِيٌّ مِنْ حيثُ فحواهُ ؛ إذِ الموتُ عِبارةٌ عنِ الغَيبُوبةِ عن عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ ، ولقدْ كانَ حالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ هٰذا النَّعتِ ؛ إذْ كانَ في جَميعِ أوقاتِه بكُلِّيَّتِهِ مُنجَذِباً إلىٰ عالَمِ الملكوتِ ، وهٰذا هو المعنِيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ »[2]

---

(١) سورة الزمر : (٣١) .

(٢) لم أقف عليه مُسنداً ، وقد أورده ابن ملك في « شرح مصابيح السُّنَّة » (٤٠١/٥) .
والمشهور في هٰذا الباب حديث : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ » ، أخرجه أبو يعلىٰ في « المسند » (٤٨٩٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٥٤/١) (١٠) ، و« المعجم الأوسط » (٩٣٨٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٦١/٣) ، من حديث سيدتنا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

ومِنْ كلَامِهِ وقدْ سُئلَ : أليسَ قالَ اللهُ تعالَىٰ مُخاطِباً لآدمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾[1] ، وهٰذا وعدٌ ، والخُلْفُ في وَعدِهِ مُحالٌ ؟

فقالَ : معناهُ أنَّكَ لنْ تجوعَ فيها ولا تَعرَىٰ ما دُمتَ فيها ، وحينَ بدَتْ سوءتُهُ . . لمْ يكُنْ في الجنَّةِ ؛ لأنَّ الجنَّةَ تَغيَّرَتْ عن طِباعِها بالإضافَةِ إلىٰ آدمَ ؛ كما أنَّ النَّارَ تَغيَّرَتْ عن طَبعِها بالنِّسبَةِ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ حينَ أُلقِيَ فيها .

(١) سورة طه : (١١٨) .

ومِن كلامِه قال في قولِه تعالىٰ : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾[1] :

إنَّما كانَتْ أبوابُ جهنَّمَ سبعةً ؛ لأنَّ للإنسانِ سبعةَ أعضاءٍ[2] ، فإذا ارتكبَ العبدُ بكلِّ عُضوٍ منها ما نُهيَ عنه . . فُتِحَ عليهِ بابٌ مِنْ هٰذه الأبوابِ السَّبعةِ .

وإنَّما جاءَتْ أبوابُ الجنَّةِ ثمانيةً ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا نَوىٰ بقلبِهِ مُلابَسةَ نوعٍ مِنَ العبادةِ . . كُتِبَ لهُ ثوابُ نِيَّتِه ، فصارَ البابُ الثَّامنُ حظَّ القلبِ ، والسَّبعةُ البَواقي في مُقابَلَةِ الأعضاءِ السَّبعةِ المطِيعَةِ .

---

(١) سورة الحجر : (٤٤) .

(٢) لعله يشير بذٰلك إلى (اليد ، والرِّجل ، والفم ، والفرج ، والبطن ، والسمع ، والبصر) ، والله أعلم .

ومِنْ كلَامِهِ قالَ :

إنَّ النَّفسَ مَطِيَّةٌ للقلبِ في بعضِ الأحوالِ ، ومَطِيَّةٌ للرُّوحِ في بَعضِها .

وللنَّفسِ باعتبارِ كلِّ حالةٍ حظوظٌ تُلائِمُها ؛ فحينَ هي مَطِيَّةٌ للقلبِ كانَتْ حُظوظُها اللَّذَّاتِ الحيوانيَّةَ ؛ مِنَ المطاعمِ الشَّهِيَّةِ ، والأغذِيَةِ السَّنِيَّةِ ، والمشارِبِ اللَّذِيذَةِ ، وغيرِها مِنَ الملَابسِ الفائقَةِ الرَّائقَةِ ، والأبنِيَةِ العاليَةِ الشَّاهِقَةِ وأمثالِها ، فإذا صارَتْ مَطِيَّةً للرُّوحِ . . لَطُفَت حينئذٍ حُظوظُها ، فصارَتْ تُحِبُّ الجاهَ والإستِتباعَ ، والتَّقدُّمَ على الأقرانِ والنُّظَرَاءِ ، والتَّفوُّقَ على الأضرابِ مِنَ الكُبراءِ ، ولعلَّ هٰذا التَّفاوُتَ لِما بينَ الرُّوحِ والقلبِ مِنَ التَّفاوُتِ مِنْ حيثُ اللَّطافَةُ والكثَافَةُ .

والله تعالىٰ أعلم

ومِنْ كلَامِهِ قالَ :

شرطُ الفَقِيرِ الزَّاهِدِ في الدُّنيا ، الخاليَةِ يدُهُ منها : أنْ يَخلُوَ قلبُهُ عمَّا خَلَتْ منهُ يدُهُ .

وشرطُ مَنْ يَزعُمُ استِغناءَ قلبِهِ عنِ الدُّنيا وخُلُوِّهِ منها : أن تَخلُوَ يدُهُ عمَّا خَلَا منهُ قلبُهُ ؛ لِيَشهدَ صِحَّةُ الظَّاهرِ علىٰ صِحَّةِ الباطنِ ، وصِحَّةُ الباطنِ بِظُهورِ حُكمِ الزُّهدِ على الظَّاهرِ ، ويَشهَدُ لصِحَّةِ هـٰذه الإشارةِ : أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ أخلَى الخَلقِ قَلباً ، ومع هـٰذا كانَ لا يَدَّخِرُ شيئاً لغَدٍ[1] ، ويخافُ إذا باتَ عِندَهُ شيءٌ ليلةً[2]

---

(١) أخرج الترمذي (٢٣٦٢) من حَدِيثِ سيدنا أَنَسٍ رضي الله عنه ، قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ .

ويعارضه ما أخرجه البخاري (٥٣٥٧) ومسلم (١٧٥٧) من حديثِ سيدنا عمر رضي الله عنه ، وفيه : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ .

والجمع بينهما أن يقال : إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم استعمل في كلِّ حالٍ ما يكون أوفق به وأرفق ، حرصاً علىٰ أمَّتِه .

(٢) أخرج البخاري (١٤٣٠) من حديث سيدنا عُقبة بن الحارث رضي الله عنه ، قَالَ : صَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَصْرَ ، فَأَسْرَعَ ، ثُمَّ دَخَلَ البَيْتَ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ ، فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ لَهُ ، فَقَالَ : « كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي البَيْتِ تِبْراً مِنَ الصَّدَقَةِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ ، فَقَسَمْتُهُ » .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

إنَّ المريدَ إذا مالَتْ نفسُهُ إلى الخَوضِ في شيءٍ مِنْ هٰذهِ غيرِ ما هو مُحتاجٌ إليهِ مِنها ، ولم يُطِقْ مَنعَها ممَّا مالَتْ إليهِ . . فعلَيهِ في ذٰلكَ وَظِيفتانِ مُرتَّبتانِ ؛ عِلمِيٌّ وعمَلِيٌّ .

أمَّا العِلمِيُّ : فهو أنْ يَعلمَ أنَّ ذٰلكَ هَزلُ حالِهِ وباطلُ وقتِهِ ، وأنَّهُ اشتِغالُ النَّفسِ بشيءٍ مِنَ الباطلِ بالنِّسبَةِ إلى المُهِمِّ المطلوبِ في الوقتِ ، وإنْ كان قَدْ يُستعانُ بمِثلِ هٰذا الباطلِ على الحقِّ وقتاً ثانياً .

ثمَّ النَّفسُ ـ لِما بينَها وبينَ الكائناتِ مِنَ المناسَبةِ والمجانَسةِ ـ مَيَّالةٌ إليها شَغِفَةٌ بها ؛ لمكانِ أنَّها جزءٌ مِنْ جُزئيَّاتِ الكونِ ، وذٰلكَ نزولٌ مِنَ الأعلَىٰ إلى الأدنَىٰ ، وانحِطاطٌ مِنَ الأرفَعِ إلى الأوضَعِ ، واستِبدالٌ بالأخسِّ عنِ الأنفَسِ .

ويَعلَمُ أنَّه جُزئيٌّ بنفسِهِ ، كُلِّيٌّ بقلبِهِ ورُوحِهِ ، فيَشغَلُ الجزئيَّ بالجزئيَّاتِ ، ويَتوجَّهُ بكلِّيَّتِهِ إلىٰ مُكوِّنِ الكُلِّ ، وهٰذا لا يَهتَدِي إليهِ ولا يَظفَرُ بهِ إلَّا أربابُ الذَّوقِ ، الَّذينَ انفَتَحت مَشامُّ بواطنِهِم ؛ فاستَنشَقُوا نَسَماتِ الأُنسِ باللهِ تعالىٰ ، وعَبَقَ بهِم أرَجُ القُربِ ، واستَولَىٰ عليهم يَرَقَانُ الحبِّ ، ووجَدوا إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ مَنفَذاً ، فهٰؤلاءِ وإنِ اشتَغلَتْ نفوسُهُم بالكونِ فأرواحُهم لا تزالُ تَشتَاقُ إلى البُروزِ مِنْ ظُلُماتِ الأكوانِ ، وتَهُمُّ مُتصاعِدةً إلىٰ عَوالِمها ؛ لأنَّها عَرفَتِ الطَّريقَ إلى الرَّفيقِ ، فمتَىٰ عَلِمَ العبدُ وتَحقَّقَ بهٰذا العلمِ . . فرُبَّما يأخُذُ التَّوفِيقُ بيدِهِ ويُريحُهُ مِن تَشوِيشَاتِ النَّفسِ ومُطالَباتِها إلىٰ أدائِهِم للأوقاتِ .

وأمَّا العمَليُّ فضَربانِ :

أحدُهُما : لا يَستَغرِقُ جميعَ الوقتِ بها ؛ بحيثُ ألَّا يكونَ لهُ حظٌّ مِنَ العبادةِ ونَصِيبٌ مِنَ الأورادِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ركونٌ إلى الهوَىٰ بالكُلِّيَّةِ ، ويُخشَىٰ عليهِ قَسوَةُ

القلبِ المؤدّيةُ إلى الهلاكِ ، فيَصِيرُ كَدُودِ القَزِّ الَّذي لا يزالُ يَنسُجُ على نفسِهِ حتَّىٰ تَنسَدَّ عليهِ المنافِذُ ، فلمْ يبقَ لهُ طريقٌ إلى الخَلاصِ ولاتَ حينَ مَناصٍ ، فهٰكذا مَنِ استغرقَ الأوقاتَ في الخَوضِ في هٰذه المشطوراتِ ؛ فلا يزالُ يجولُ يَمنَةً ويَسرةً ، وفوقَ وتحتَ ، وأمامَ ووراءَ ؛ حتَّىٰ لا يَهُمَّ بالحركةِ إلىٰ جانبٍ مِنَ الجوانبِ إلَّا ويَرىٰ نفسَهُ مَحصورةً في مَضايقِ أجزاءِ الكونِ ، مُرتَبِكةً في شِبَاكِها ؛ فتَنسَدُّ عليهِ أبوابُ الأُنسِ ومَنافِذُ الخُلوصِ إلىٰ مَقارِّ القُرْبِ ، فلم يَزَلْ هٰكذا إلىٰ أنْ يَهلِكَ ، بل يَنبَغِي أنْ يُخصِّصَ وقتاً مِنْ أوقاتِهِ للِاشتِغالِ بها ، ويَعُدُّ ذٰلكَ الوقتَ مُضَيَّعاً مِنْ عُمُرِهِ ، فيَتأسَّفُ ويَتلهَّفُ عليهِ .

الضَّربُ الثَّاني مِنَ العمَليِّ : أنْ يكونَ في ذٰلكَ دائمَ اللَّجْأ إلى اللهِ تعالىٰ ، مُتضَرِّعاً بينَ يدَيهِ مُستَكِيناً لهُ ، دائباً في السُّؤالِ لمولاهُ أنْ يُهوِّنَ عليهِ رفضَ أَهوِيَةِ النَّفسِ ، ويَهدِيَهُ إلى العملِ بالعلمِ الصَّريحِ ، ويقولَ في حركاتِهِ وسكناتِهِ : اللهمَّ ؛ استَخلِصنِي لكَ ، واقطَعنِي إليكَ عمَّا يَقطَعُنِي عنكَ ، ولا تَشغَلنِي بسواكَ ، فمتَىٰ قامَ بهاتَينِ الوَظِيفَتَينِ . . يُرجَىٰ لهُ الخيرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ومِنْ كلَامِهِ في معنَىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً »[1] :

فحقُّ التَّوكُّلِ كمالُ اليقينِ ، ودوامُ رُؤيةِ الوكيلِ سبحانَهُ بعينِ البَصيرةِ ، والِاعتمادُ علىٰ علمِهِ تعالىٰ بالعبدِ ، وتَيقُّنُ كمالِ رحمتِهِ وعاطفتِهِ بألَّا يُهمِلَ عبدَهُ ولا يُضيِّعَهُ ؛ فإنْ جاعَ . . أطعمَهُ ، وإنْ عَطِشَ . . سقاهُ ، وإنْ عَرِيَ . . كساهُ ، وإنْ خافَ . . حَرَسَهُ وتولَّاهُ ؛ فبِقَدرِ قُوَّةِ اليَقِينِ يُمِدُّهُ اللهُ تعالىٰ بالصَّبرِ إلىٰ أنْ تتَداركَهُ المعونَةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقضاءِ حاجَتِهِ ، ودَفْعِ مُنازَعَةِ نفسِهِ المتَطَلِّعِ إلىٰ ضَرورتِها ، وإذا نَفَذَ جُهدُهُ في الصَّبرِ وأمسكَ عنِ الرُّجوعِ إلى الوسائطِ . . قُضِيَتْ حاجَتُهُ : إمَّا بقَدَرِهِ في طَيِّ الحِكمةِ ؛ بأنْ تَنقَضِيَ حاجتُهُ بواسطةِ إنسانٍ ، وإمَّا بمَحضِ القُدرةِ مِنْ غيرِ واسطةٍ ، ومهما ضَعُفَ وقلَّ حظُّه مِنَ اليقينِ . . يَضعُفُ صَبرُهُ ويَنزِلُ مِنْ عزيمةِ حالِهِ إلى الرُّخصةِ ، وتَستَفِزُّهُ حَركةُ النَّفسِ ، ويَرجِعُ إلى الوسائطِ والِاكتسابِ .

وإدامةُ الِالتجاءِ والضَّراعةِ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ يُكسِبُهُ قُوَّةً في اليقينِ ، وعزيمةً في الصَّبرِ ، وهٰذا يكونُ بعدَ إحكامِ المقدِّماتِ مِنْ كمالِ التَّقوىٰ والزُّهدِ في الدُّنيا ، والخُروجِ مِنَ الِارتهانِ بنَظَرِ الخلقِ ، وامتطاءِ صَهوَةِ الإخلَاصِ ، وكمالِ الشُّغلِ باللهِ تعالىٰ بتَناوُبِ أعمالِ القلبِ والقالَبِ ، وصِدقِ العزيمةِ في العُزلَةِ ، واغتنامِ الوَحدةِ ، والفِرارِ مِنْ مُساكَنَةِ الأُنسِ بالجُلساءِ والإخوانِ .

والله تعالى الموفق والمعين

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بنحوه .

ومِن كلَامِه قال :

الهوَى المتَّبعُ في العبدِ بمَثابةِ الجُرحِ علىٰ جِسمِهِ ، والكلمةُ الَّتي لا تَعنِي بمَثابةِ النَّزيزِ مِنَ الجُرحِ ، وما لَمْ يَندَمِلِ الجُرحُ . . لا يُعدَمُ النَّزِيزُ ، واندِمالُ جُرحِ الهوَىٰ بمُخالَفتِه ؛ بتَحقِيقِ اتِّباعِ العلمِ ، ونَهيِ النَّفسِ عنهُ ، فبذٰلكَ يكونُ كَيُّ جُرحِهِ ، وحَسمُ مادَّةِ نَزيزِهِ .

ومِنْ كلَامِهِ قالَ :

الأحوالُ بمثابةِ اللُّبابِ ، لا تَنحَفِظُ إلَّا في قُشورِ الأعمالِ .

وقالَ : صِيانةُ الأحوالِ بالأعمالِ ، ورَزانةُ الأعمالِ بالأحوالِ .

وقال : حقيقةُ العبدِ مُركَّبةٌ مِن مَجمُوعِ أيَّامِهِ ؛ فكلَّما مرَّ يومٌ مِن أيَّامِ حياتِهِ . . نَقَصَ جُزءٌ مِنْ أجزاءِ نفسِهِ ؛ حتَّىٰ إذا فَنِيَت أيَّامُهُ وبَلَغَ الكِتابُ أجلَهُ . . قُبِضَتْ نفسُهُ ، وأُودِعَتْ رَمْسَهُ[1] .

---

(١) الرَّمسُ : القَبر . انظر « لسان العرب » ، مادة (ر م س) ، (٦/١٠١ ـ ١٠٢) .

ومِنْ كلامِهِ : فتوحٌ[1] ، قالَ : للنَّاسِ في التَّخلُّصِ عن كَدَرِ صِفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها طريقانِ :

طريقٌ للأبرارِ ، وطريقٌ للمُقرَّبينَ .

فأمَّا الأبرارُ : إذا تَحَرَّكَتِ النَّفسُ بصِفَتِها ، وظَهَرَتْ بأخلاقِها ؛ مِنَ الحِقدِ والغِلِّ والحسَدِ ، واستِشعارِ الفَقرِ والكَمَدِ على فَواتِ الحُظوظِ وإلى غيرِ ذٰلكَ . . يَسوسُونَ حالَهُم بالعلمِ ، ويَسلُكونَ طريقَ الرِّضا بالقَضاءِ والتَّسليمِ لمَا يُقدِّرُ المولىٰ ؛ فيُكشَفُ عنهُم بعضُ ذٰلكَ ، ويَتنَسَّمونَ الرَّوحَ الَّذي يزولُ بظهورِ تلكَ الصِّفاتِ والأخلاقِ : أولٰئكَ يُنادَونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ، ولٰكنْ أقامُوا حقَّ العُبوديَّةِ ، وأدَّوا وظِيفَةَ المقامِ الَّذي أُقِيمُوا فيهِ .

وأمَّا المقرَّبونَ : فإنَّهم يَرونَ أنَّ تشَبُّثاتِ النَّفسِ عندَ حَركتِها بظُهورِ أخلاقِها وصِفاتِها . . إنَّما هو ببقايا الوجودِ ، وقدْ عرَّفَهمُ الحقُّ سبحانَهُ طريقَ الفناءِ والإستغراقِ والتَّستُّرِ بأنوارِ فَضلِ الحقِّ الخاصِّ ؛ فيَتجرَّدونَ عن قَميصِ الوجودِ ، ويَكتَسُونَ مَلابِسَ نورِ القُرْبِ ، فلَا تَتَطرَّقُ إليهِم تَشبُّثاتُ النَّفسِ ، فرَوحُهم دائمٌ ، وهم في الأرضِ أعزُّ مِنَ الكبريتِ الأحمرِ .

وهٰذا آخرُ ما تيسَّرَ مِن كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وأعادَ عليَّ مِنْ بَركتِهِ ، واللهُ تعالىٰ يَجعَلُ ما كتبتُهُ بخطِّي في هٰذا المجموعِ شاهِداً لي لا عليَّ ، وأنْ يَستَخلِصَنِي لهُ ، وأنْ يَهَبَ ليَ العِلمَ النَّافِعَ والعَمَلَ بهِ ، ويَهدِيَني إلىٰ سَواءِ السَّبيلِ .

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) هٰذا الفُتوحُ مَذكورٌ بنصِّه في رسالةِ « الفتُوحاتِ » .